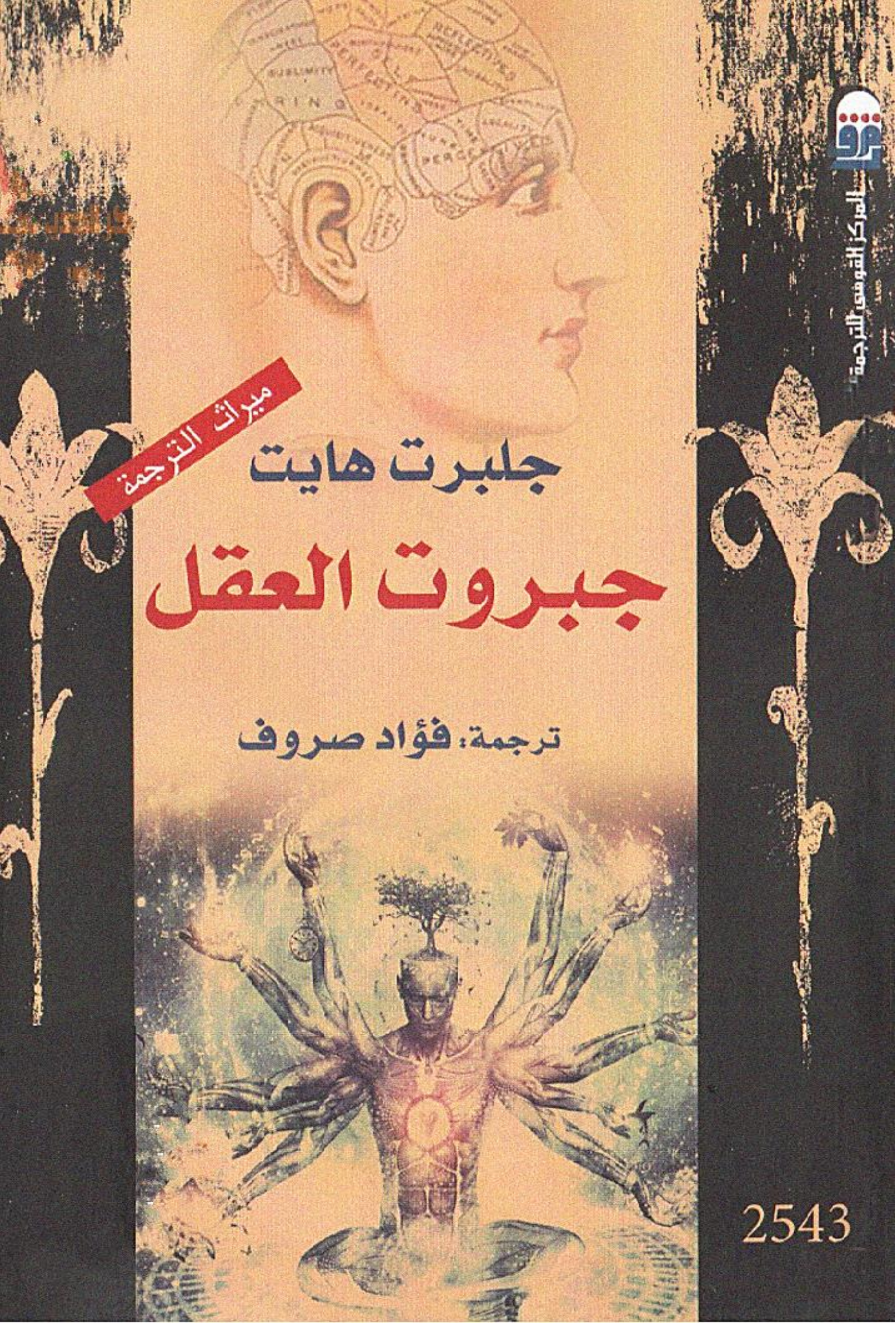

المركز القومي للترجمة
ميراث الترجمة
جلبرت هايت
جبروت العقل
ترجمة: فؤاد صروف
2543

جبروت العقل

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 2543
- جبروت العقل
- جلبرت هايت
- فؤاد صروف
- 2015

هذه ترجمة كتاب:
Man's Unconquerable Mind
By: Gilbert Highet

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

جبروت العقل

تأليف : جلبرت هايت
ترجمة : فؤاد صروف



2015

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

هايت، جلبرت.

جبروت العقل/تأليف: جلبرت هايت؛ ترجمة: فؤاد صروف

القاهرة - المركز القومي للترجمة؛ ٢٠١٥

١٨٤ص؛ ٢٠سم

١ - التاريخ - فلسفة.

(أ) صروف، فؤاد، ١٩٠٠ - (مترجم)

(ب) العنوان ٩٠١

رقم الإيداع / ٢٠١٤/٢٥٤٩١
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978-977-92-0016-3
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المشتركون في هذا الكتاب

جلبرت هايت : ولد في اسكوتلندة وتلقى العلم في جامعتي جلاسجو واكسفورد. ثم ذهب إلى الولايات المتحدة في سنة ١٩٣٧ للعمل سنة واحدة بجامعة كولمبيا وتعلقت به الجامعة فطلبت منه أن يظل بها استاذاً للاتينية والاغريقية فكان ذلك ؛ ولا يزال يعمل بهـــا الى الآن إلاّ في فترة الحرب الاخيرة حين قام بواجبه في خدمة الجيش .

وهو رئيس نقاد الكتب في مجلة هاربر الامريكية المعروفة ويذيع محاضرات بالاذاعة الامريكية والف عدة كتب منها « التقليد الكلاسيكي » (١٩٤٩) و « الناس والاماكن والكتب » (١٩٥٣) و « جوفينال الساخر » (١٩٥٤) و « فن التعليم » (١٩٥٠) وقد ترجمه إلى العربية الاستاذ محمد فريد ابو حديد ونشرته مؤسسة فرانكلين وأعيد طبعه ؛ و « هجرة الافكار » وترجمه إلى اللغة العربية الاستاذ فريد اسعد ونشرته مكتبة الانجلو المصرية كما اشترك في تحرير كتاب « فنون الحياة » الذي سيصدر عن مؤسسة فرانكلين .

المترجم ـ فؤاد صروف : ولد بلبنان سنة ١٩٠٠ وأتمّ دراسته فيه وتخرّج في الجامعة الامريكية سنة ١٩١٨ ثم درس بالقسم الثانوي بالجامعة الامريكية وتولى منصب ناظر مدرسة ثانوية في سوق الغرب بلبنان خـــلال ثلاث سنوات بعد تخرجـــه . سافر إلى مصر سنة ١٩٢٢ واشتغل خلال خمس سنوات معاوناً لعمه العلامة الدكتور يعقوب صرّوف أحد مؤسسي المقتطف ورئيس تحريره . ثم تولى رئاسة تحرير المقتطف من ١٩٢٧—١٩٤٣ ورئاسة تحرير المختار من ١٩٤٣ لآخر سنة ١٩٤٧ واسهم في تحرير طائفة من الصحف العربية المصرية وكان احد مؤسسي المجمع المصري للثقافة العلمية وأحد مستشاري سلسلة اقرأ في سنواتها الاولى . يشغل الآن ومنـذ سنة ١٩٥٢ منصب نائب رئيس الجامعة الامريكية ببيروت ومدير شؤونها العامة . ومن مؤلفاته العديدة (فتوحات العلم الحديث) و (آفاق العلم الحديث) و (مـــذبح المريخ) و (النار الخالدة) و (على الطريق) .

الدكتور احمد زكي : صاحب المقدمة : هو العالم المصري الكبير مدير معهد البحوث المصري سابقاً والوزير السابق للشؤون الاجتماعية ومدير جامعة القاهرة سابقاً وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة

الاستاذ حسين بيكار : مصمم الغلاف : الفنان المشهور والاستاذ بكلية الفنون الجميلة بالقاهرة ؛ ومن أشهر الرسامين في زخرفة الكتب .

مقدّمة

بقلم الدكتور أحمد زكي

هذا الكون عجيب .

عجيبة ارضه ، وعجيبة سماؤه .

وليس بأعجب ما في الارض صخورها ورمالها . وليس بأعجب ما في الأرض جبالها ووديانها ، وليس بأعجب ما في الارض انهارها وبحارها . وليس رعدها القاصف ، ولا برقها الخاطف ، ولا مطرها الهاطل ، ولا رياحها العاصفة ، ولا أعاصيرها الجائحة ، ولا زلازلها المخربة ، ولا براكينها وهي بالحمم متفجرة .

وليس بأعجب ما في الأرض نباتها . وليس ما مشى على الأرض بمخلب ، أو دب على الأرض بحافر . وليس حشرها ، وليس طيرها ، وليس سمكها ، على كثرة ما في كل هذا من أعاجيب .

ان أعجب ما في الأرض سيد حيوانها — الانسان .

وأعجب ما في الانسان رأسه .

وأعجب ما في الرأس الفكر .

فالفكر أعجب شيء عرفناه في هذا الكون.

والفكر هو موضوع هذا الكتاب.

ان كاتب هذا الكتاب انما كتبه ليمجد الفكر الانساني.

فالفكر للانسان وحده، وكل من عرفنا من الخلق، في الفكر قاصر.

والفكر هو صانع هذه المدنية. وتاريخ هذه المدنية انما هو تاريخ فكر.

فاكتشاف الزراعة فكر. واكتشاف الصناعة فكر. وتجمّع الناس في القرى كان عن فكر. وصيرورة القرى الى مدائن كانت عن فكر. والأدب فكر. والفن فكر. والعلم فكر.

والمدنية الغربية عنده مدنية فكر، بدأت بالاغريق فالرومان. وأغفى الفكر حيناً بعد حين، وهو يستيقظ لينام، وينام ليستيقظ، ولا يموت أبداً، حتى انتهى الى ما انتهى اليوم اليه من حال.

وليس لانبثاق الفكر قانون يحكمه، وليس لانبعاث المفكرين في الأمم. فهم ينبعثون على الشدة، وهم ينبعثون على الرخاء. وقد يزدحم بأهل الفكر جيل في قرن، ليخلو منهم كل الخلاء، أو يكاد، قرن يليه.

والفكر ينبعث بغتة ، وقد ينبعث تدرجا . وقد ينبعث ويتوهج في راس ابن القصر، وقد ينبعث ويتوهج في رأس ابن الكوخ .

وتسأل لماذا وكيف؟

ولا يجيبك أحد عن ماذا وكيف .

وأنت تحمل رأسك وفيه الفكر ، ولكنك لا تدري كيف تفكر . وأنت بالفكر تعي من الدنيا ما تعي ، ولكنه شعاع واحد توجهه في البرهة الواحدة ليدلك على شيء يجري في هذه الدنيا واحد . ان للكون وجوهاً ألوفاً ، لا يستطيع الفكر ان يجمعها في حدقة واحدة .

ان الدنيا خافية برغم ما يسطع فيها نهاراً من نور . والفكر أخفى شيء فيها .

وكل حيّ يفكّر ما كان في يقظة ، وهو يفكّر رغماً منه من حين يستيقظ الى حين ينام . والتفكير منه الضحل ومنه العميق . والقلّة القليلة من الناس هي التي تفكّر في شيء ذي بال . والقلّة الأقل من الناس هي التي تحدو بفكرها الناس ، فيتقدمون ، وتشق لهم طريقاً فيتبعون .

وأكثر العقل عند أكثر الناس متعطل ، وأكثر العقل عند أقل الناس يعمل . وأقول أكثر العقل لأن في العقل بقية بل بقايا لا تزال متعطلة عند أكثر الناس فكراً .

وليس لتحريك العقل الخامل، أو الناشئ، الى الفكر، كجلوسه الى العقول الناشطة الراجحة. وكم عقل مات صاحبه، ولكن طواه حيًّا الى الأبد في كتب أو كتاب.

ومستقبل الانسان على هذه الأرض مستقبل عقول. ان الكثرة الكبرى من الناس أميّة، والاميّة في العصر الحاضر باب مغلق دون أنتجة العقول، تلك المذخورة في صفحات الأوراق. والأميّة آخذة عند بني الناس في التزايل، فعقول السواد آخذة في التفتح، وهذا خير كبير. والعلم آخذ في تسهيل العيش وترفيهه، وقد يكون من هذا للفكر شرّ مستطير. وقد يقيّد الفكر، ويلجم الجاماً، فلا ينمو، أو ينمو كالسرطان. ان الفكر لا ينمو نماء الطبع والفطرة، والصحة، الا على الاطلاق والتحرير.

على هذا النحو يجري المؤلف في كتابه، يبحث في الفكر، في الناس، ما كان منه وما يستقبل.

ثم هو يأخذ ينظر في حوائل تقوم موانع دون الفكر فلا ينطلق، فيجد من هذه الموانع ما هو خارج عن الفكر وعن صاحبه... ويجد منها ما هو في العقل دخيل، لا تستطيع بحكم الطبع أن تقتحمه العقول.

وهنا يتراءى العقل الانساني، القادر كل القدرة، العاجز كل العجز.

وهنا يتراءى صدق ما قال به أقدمون، ويقول به أحدثون، أن الفكر يفتح الطريق بل الطرق الكثيرة

المديدة، ولكن ما من طريق ينتهي الاَّ الى سدّ من صخر يصطدم به عابره، فلا يكون له الى العودة سبيل.

ولكن ...

ولكن، هل العقل هو وحده المصباح الواحد الذي يحمله السابل في طرقات هذه الدنيا؟

انّا نسمع اللحن الجميل فنطرب، فهل بالعقل نحن نطرب؟

ونقرأ الشعر فنعجب، فهل بالعقل نحن نعجب؟

ونهتز للجمال، في صورة ترسم أو تمثال ينحت، أو تمثال من لحم حيّ تدفئه الدماء. ونهتز للجمال في الطير أو في الزهر، ونهتز لجمال الحركة في الرقص وغير الرقص، كما نهتز لجمال السكون، فهل بالعقل نحن نهتز؟

والطبيعة تسالم فنأنس بها، وهي تغضب وتصخب فتهول، فنفزع منها، فهل بالعقل وحده يكون بها أنس ومنها فزع؟

أم بالنفس الانسانية شيء آخر، أشد من العقل خفاء، هو، كالعقل، سبيل الناس الى ادراك والى خبرة.

***

ساعات قضيتها مع مؤلف الكتاب، يعتمل فيها فكري وأنا أقرأ لرجل يتحدث عن الفكر، ما كان أمتعها لفكري، قادرا وعاجزا.

وأتفق مع المؤلف فيلذّني اتفاق ، وأختلف معه حينا فيلذني اختلاف . ان الاختلاف يحرك الفكر ، وأنا أحرص على أن أقرأ لمختلف ، عاقل مخلص ، مني عـــلى أن أقرأ لمؤتلف . ان القراءة على ائتلاف دائماً ، كشرب الماء ، لا يلذّ الاّ لظامئ .

ثم المؤلف .

انه المستر جلبرت هايت ، ولد في اسكتلندة ، وتعلم بجامعتي جلاسجو وأوكسفرد ، ثم رحل الى الولايات المتحدة عام ١٩٣٧ ، أستاذاً للّغة الاغريقية واللاتينية بجامعة نيويورك الشهيرة ، جامعة كولمبيا . وهو الى اليوم هناك . فهو انجليزي تأمرك ، فجمع بين خبرتي أمتين . وهو مؤلف شهير ، يؤلف في الأدب ، وفي التربية . واذاعاته الأدبية ومقالاته يتلقفها السامعون والقرّاء . وهو يستمتع بصحبة زوجة هي الأخرى مؤلفة شهيرة . انها القصّاصة هيلانة ماك انس ، ويدل اسمها على أرومة اسكتلندية كذلك . وهما يجتمعان عند البيان ، يعزفان معاً . فإذا قاما يؤلفان ، افترقا .

ثم المترجم .

ولست أدري أأنا في حـــاجة الى التعريف به في بلاد العرب . ان قرّاء العربية لا ينسون للأستاذ فؤاد صروف صولاته في المقتطف حين كان يعمل مع عمه الدكتور يعقوب صروف ، ولا جولاته حين استقل برآسة تحريره سنوات من بعد ذلك .

انه ولد في لبنـــان عام ١٩٠٠ ، وأتمّ دراسته بالجامعة الأمريكية عام ١٩١٨ . وجاء الى مصر عـام ١٩٢٢ . وفي مصر أقام فوق الربع قرن من الزمان . عمل في المقتطف ، اشتراكاً وعلى استقلال ، من عام ١٩٢٢ الى عام ١٩٤٣ . ثم تولى رئاسة تحرير المختار من عـــام ١٩٤٣ الى عام ١٩٤٧ . وأسهم في أثناء ذلك ، ومن بعد ذلك في طائفة كبيرة من الصحف العربية ، يكتب في علم وفي اجتماع وفي شتى الشؤون . ومن مؤلفاته فتوح العلم الحديث ، وآفاق العلم الحديث ، ومذبح المريخ ، والنار الخالدة ، وعلى الطريق . وهو شارك في تأسيس المجمع المصري للثقافة العلمية ، وعمل أميناً له سنوات .

وعاد الى وطنه الأول يستخلصه لنفسه . وأوطان العرب للعرب اوطان سواسية . فرجع الى لبنـــان فشغل منصب نائب رئيس الجامعة الأمريكية ببيروت ومدير شؤونها العامة ، ولا يزال يشغله .

فهذا الكتاب ، وهذا مؤلفه ، وهذا مترجمه . بقي قراؤه . واني ضامن لهم متعة ساعات ، يجلسون فيها الى هذا الكتاب يقرأونه . يقرأون ، بفكرهم ، عن الفكر ، ما هو ، ومـا قدرته ، وما ضعفه ، وما ماضيه وما حاضره وما مستقبله . انـه الفكر يقرأ عن الفكر ، بعد أن أتعبته القراءة عن غيره من الأشياء .

وبالله التوفيق . . .

الجزء الأوّل

قدرة المعرفة

«خلّفت وراءك

«قوى تعمل من أجلك: الهواء والارض والسموات،

«ولن يكون في وسع نفَسٍ من أنفاس الرياح

«أن ينساك. إنّ لك لحلفاء عظاما ـ

«وأصدقاؤك هم النشوات، والآلام،

«والحبّ، وعقل الانسان، الذي لا يُغلب»

وردزورث في قصيدته عن

«توسان لوفرتير»

الفصل الاول

ما اكثر العجائب!

في مأساة من أكرم المآسي الاغريقية، علمت فتاة أن جثة شقيقها – المتهم بأنه ثائر وخائن – قد طرحت في بقعة صحراوية حتى يحلّ بها الفساد أو تتناهشها الذئاب والنسور، أنذرت وأوعدت الحكومة بإعدام من يتولّى دفن الجثة. وقد أمضّ الفتاة تسآل ملحّ: مـــاذا عساها تصنع؟ ثم حزمت أمرها على أن الواجب يقتضيها أن تنتهك حرمة القانون، وإنْ أفضى ذلك إلى إهدار سعادتها وحياتها. أما شقيقتها فقد أبت أن تصحبها، وذرفت دمعاً، وسعت جهدها لتثنيها عن عزمها، ولكن الفتاة مضت لا تَلْوي على شيء لويَة نحو مصيرها الرائع الرهيب.

وبعد قليل يهْرَع حارس مبهور الأنفاس، يبلغ رؤساءه أن أحداً من الناس قد زار مكان الجثة وأقام شعائر الدفن، برغم الأمر الرسمي الجديد، والحرس القوي الشاكي السلاح.

فغضب حاكم البلد المستبدّ ، أن يستهين كائن من كان بسلطانه وأمر بتفتيش المنطقة كلها ، واعتقال المجرم ومعاقبته على التوّ . وسمعت جماعة من المواطنين بما كان ، فأخذهم الذهول – والخوف ، ولكنهم ما لبثوا أن انطلقوا ينشدون نشيداً قدسياً صادراً من اعماق قلوبهم معرباً عن إعجابهم بما يتصف به البشر من قدرة لا تحدّ .

ما أكثر العجائب ! ولكنك لن تجد بينها

عجيبة أعجب من الإنسان . يتحرك الإنسان على البحر الأغبر ،

مستعيناً بالريح والعاصفة ، مجترئاً على الاغوار والغوارب .

حتى أقدم الأرباب ، الارض ، الارض التي لا ينضب معينها ،

يقبض الانسان على عنانها بمحاريثه ووطأة جواده الثابتة .

يشقّ تربتها ويقلبها كل سنة ،

اللغة والفكر اللطيف السريع كالريح ، تعلمها الانسان

كما تعلم طرائق العيش في البلدة والمدينة

تؤويانه من الصقيع الكالح ، وتنجيانه من سهام المطر .

داهية داهية ، هو الانسان

***

وعلى ما في خططه من حكمة وحيلة ، تجاوزان الخيال
فانها تقوده الى الشر والخير معاً .

ولو شاءت الجماعة المنشدة، لرفعت نشيدها الى المصير الانساني ، الى القدرة القاهرة التي يبدو كأنما هي تتخطى بعض الرجال والنساء أحياناً ، على حين تراها تتخيّر غيرهم لتبلوهم بصراع مؤلم ، او تستنجزهم قراراً فيه حياة او موت ، او تهيب بهم الى البطولة . فروح البطولة هو الحديد الخفيّ الذي يدور مع الدم ، ويمكن المعذبين من ان يتساموا به على الاشفاق ، حتى يبلغوا مرتبة تنيلهم الاعجاب والشرف . بيد ان الجَوْقةَ في نشيدها ، امتدحت العقلَ المفكر ، المنطوي على الارادة ، فيما ينطوي عليه من وجوه النشاط التي لا تحصى ، العقلَ الذي يستطيع ان يحلّق فوق ما قدّر له من مصير ، بأن يتحدّى مصيره، وان يفهمه ايضاً .

والنشيد المرفوع الى عقل الانسان ، هو نفسه آية باهرة من آيات العقل . فقد اخذ الشاعر صفوقليس قطعة من اسطورة ترتدّ الى ما قبل التاريخ ، وصلت اليه بعد ما جازت هوّات لا يحدّ الخيالُ ظلاَمها : اسطورة وفاة الاميرة انطيفونا ابنة الملك اوديبوس المعذّب ، فنفذ الى فهم معناها الخالد على الدهر . وقد جمع حوادث المأساة واشخاصها ونسقها إيقاعاً شديد الاحكام في الاختراع الجديد

الرائع الدرامة التراجيدية (المأساة) . وأنطق اشخاصها بالفاظ آسرة ، بارعة ، قوية من اللغة الاغريقية التي تعدّ من ابدع وابرع ما برأ البشر أداةً للتعبير ، ولكي تحمل الالفاظ من المعاني ما هو انفذ وادقّ ، اجرى الحوار على ألسنة الاشخاص شعرا ، فعبّروا عن افكارهم (افكاره هو) في مقاطع من الشعر القويّ المرن على رصانته – الشعر « الدرامي » الذي اخترعه اليونان ، واخذته عنهم شعوب تلتهم دون ان تفوقهم فيه . وكذلك اعرب فريق المنشدين في المأساة ، عن انفعال الشفقة والخوف والدهشة في نبرات ناطقة كانت هي والرقص سواء. وقد وضع صفوقليس ألحاناً موسيقية لروايته ، واصطنع لفئة المنشدين ألواناً من الرقص الشعائري . وليس في وسعنا اليوم ان نرى الرقص ، او ان نسمع الموسيقى ولكننا نستطيع ان نستشعرهما في نبض كلماته وايقاعها . وقد مات صفوقليس ، ومات الذين مثّلوا روايته ، وذهب جميع الذين شهدوا مأساة أنطيغونا تُمثّل في اثينا وسمعوا أنغامها ، منذ اربعة وعشرين قرناً ، واصبح المسرح كومة من خرائب ، واللغة نفسها التي عبر بها ، قد زالت عن ألسنة الناس منذ عهد بعيد .

ومع ذلك فان كلمات صفوقليس وأفكاره لن تموت . والناس يُقبلون على تعلم قراءتها غير مبالين بالمشقة، ويعجبون بها ، انهم يتدارسون تركيب المسرحية ، ويستعينون بأذن

داخلية في نفوسهم على استيحاء ايقاع شعرها والحـــانه، ويسمعون أصوات الاشخاص الذين يمثلونها : البطلة ذات الكِبَر، والمشترع الذي لا يلين، ولا يزالون تدهشهم تلك المعجزة التي لا ينقضي سحرها — معجزة العقل البشري، الذي يستطيع ان يبتكر افكاراً كهذه الافكار، وان يفرغها في مثل هذا القالب الرائع، ثم ان ينقلها على الرغم من اختلاف اللغة والتاريخ والاعتقاد وتطوّرها، فتتلقاها اجيـــال تالية فتعيد تقليب الفكر فيها فتوحي افكاراً جديدة في عقول اناس أُخر. واذا ما قرأها الناس استشعروا مرة أخرى معنى المأساة، أنه ينبغي للناس، رجالا ونساء ان يفكروا، وان يحسّوا انهم احرار ليفكروا، وان احط الوان الشقاء، هو استعباد العقل لا استعباد الجسد، ان في قدرتنا ان نجعل الحياة، وان قسَتْ او استغلق أمرها علينا، جديرةً بمصير رائع اذا نحن حرصنا على صيانة عصمة العقل.

الفصل الثاني

الانسان

التفكير ، التعلّم ، التذكر ، المعرفة ، التصوّر وابتكار المعاني ، حفظ المعرفة ونقلها عبر الزمـــان والمكان ، هذه الأشياء ليست عجيبة وحسب في سعة نطاقها وتنوّعها ، بل انها فذة ، فهي التي تجعلنا بشرا .

الحيوان والانسان

تبصّر في حياتنا ، فكل وجه من وجوه نشاطنا – عدا ما تقدّم – يشاركنا فيه سائر سكان الارض . ان الحيوانات بين طيور وزواحف وسمك وحشرات ، تتصارع في سبيل السلطان كما نفعل . وهي تنظم أنفسها في جماعات ، وكثير منها يبني، وبعضها يسيطر على بيئته بمخترعات بارعة، وبعض آخر يجمع الثروة كما نجمعها . انها تحارب ، وتتناسل ، وتلعب الألعاب، وتستمتع فئات منها بقوى لن ننالها وقلما ندركها ،

وتتصف بالدهاء والبراعة ، ولكنها في مجموعها قلّما تتعلّم شيئاً جديداً ، ولا تكاد كأفراد ان تتعلم شيئاً جديداً على الاطلاق . براعتها متعددة الألوان ، معقدة ولكنها محدودة ، وفنّها على ما فيه من حُسْنٍ ينصرف اطلاقاً الى الزينة ، ولغاتها تتألف من بضع عشرات من الاشارات والاصوات. اما ذاكرتها فقوية وإنْ كانت مقتصرة على نطاق ضيق ، ورغبتها في الاستطلاع سطحية وعابرة ، فهي لا تكاد تكون سوى بداية ذلك العجب الذي يأسر عقل العالم البشري ، او الشاعر ، او المؤرخ ، او الفيلسوف . وهي لا تكاد تتصوّر ان التعلم والمعرفة هما نشاط لا حدّ له ، توجهه قوة الارادة . ولن تجد بين الاحياء على الارض جماعة سوى جماعة البشر ، يستطيع افرادها حقاً ان يتعلموا ويعرفوا ويتذكروا ويفكروا تفكيراً مبدعاً ، متخطين حدود الجماعة الواحدة او متغلبين على إلحاح حاجة عابرة ما . فالمعرفة التي تُنال وتُنقل من اجل المعرفة وحدها ، هي الصفة التي تجعلنا بشراً . والجنس البشري فيه اوبار الحيوان ورئاته ، وعظم الزواحف ، ودم كدم السمك. فنحن والحيوان ذوو قربى ، وكثيراً ما نكون أشدّ قسوةً منهُ ، ولكننا في حقيقة الامر نختلف عنه في ان قدرتنا على التعلّم لا تكاد تحدّ ، واننا نعرف ونتذكر ، فنحن « الانسان المفكر » .

ان حياة كل رجل وامرأة مؤلفة من افعال وانفعالات

كثيرة ، ولكن صورة الحياة تبلغ ذروة الوضوح اذا نظرنا اليها على انهـــا تعلّم . فنحن لا ننفك نفكر ، وافكارنا وتجاربنا تكوّن كتلة من المعرفة ، نسلم بها ونتقبلها ولا نفتأ نتعهدها بالتنظيم ، ولا يختلف احدنا عن الآخر الاّ بمقدار عمق هذا التنظيم وكماله .

ونحن نعترف بهذا ، فهو من النظرات المألوفة ، ولكنّ الرأي غير المألوف هو ان تاريخ البشر كله ، بأمجاده ومثالبه ، وجرائمه وروائع بطولته ، لن يفهم افضل فهم الاّ اذا نظرنا اليه على انه تيّار تعلّمٍ مستمرّ وهذا التيّار ، قد يضطرب مدداً طويلة او يرتدّ او يقف ، ولكن في الوسع ان نتبين مسيره ، وكلما كان مسيره الى امام كان دائماً ادعى الى الاعجاب .

ان دراسة التاريخ على انه احاديث الصراع من اجل السلطان ، تثير النفس ، وتحركها ولكنها لا تجدي . فقد ظلت حيوانات الدينوسور الجبارة تتصارع عصوراً طويلة ، عاش بعضها ومات بعضها ، ليس في ذلك معنى يستفاد . وقبائل البشر لم تزل منذ قرون تصطاد وتغزو ويستعبد بعضها بعضاً — براثن هـذا الحيوان اطول من براثن ذاك ، وعضلات هذا المحارب اقوى من عضلات خصمه ، هذا نصب كمينا وذاك وقع فيه . حقائق ، ولكن أهي ذات خطر ؟ أفي وسعها ان تفسّر لنا انتشار البشر على سطح الارض ،

ام هي نشاط لا يمتّ الى الاصل بآصرة؟ طبعاً لا ، ان تاريخنا الحقيقي الاصيل ، هو تاريخ تعلمنا وتفكيرنا .

فبالتعلم انتقلنا من مرحلة الحيوان وجعلنا انفسنا بشراً ، وكانت هذه النقلة هي المرحلة الاولى ، فهناك في الادغال الدافئة ، وبطريقة ما ، بدأ المخ البشري العجيب ، يتكون خلية خلية ، ورَجْعاً عصبياً بعد رَجْع ، ومعه نشأت قدرتان بشريتان — اللغة الدقيقة المعقّدة ، والايدي البـــارعة التي تتكيف وفقاً للحاجة . وقد يتهدم العالم من حولنا ولكن هاتين القدرتين تيسّران لنا ان نعيد سيرته الاولى .

الأدوات

كنا لا نزال في ظلمات الدغل والكهف ، يوم تعلمنا ان نستعمل ادوات ، وافضل من ذلك أننــــا تعلمنا كيف نصنعها. ان دراسة الآثار التي تعود الى الزمن السابق للتاريخ ، هي علم لا يزال فيه نصيب كبير للتخمين . ولكنّ شيئاً واحداً فيه لا يأتيه الشكّ وينطوي على كثير من الشفقة والفتنة ، هو التقدم البطيء الذي اصابته ذواتنا المتغلغلة في القِدَم خلال سيرها من « الحيوانية » الى « الانسانية » عن طريق عمل التعلم الذي لا يفتر ولا يقف عند حدّ . وانت ترى في كل متحف ذي شأن صندوقاً ممتلئاً بأدوات من الظرّان

— مطارق وفؤوس وكاشطات مرتبة وفقاً لاختراعها، فأقدمها لا يكاد يعدو ان يكون كتلا من الحجر ، وقد كسرت شظايا من بعض زواياها حتى تستطيع اليد الغشيمة ان تقبض عليها بطريقة ما . ولكن لا تكاد تحدق في هذه الادوات التي صنعها الانسان الوحشي في فجر البشرية ، وتفحص بقية الادوات في السلسلة المرتبة ، حتى ترى كيف تعلم الانسان ، رويداً رويداً ، قرناً بعد قرن ، ان يختار حجـــارة افضل لتأدية غرضه ، وان يدرس وزنها وتوازُنَ كل كتلة بعد صنعها، ثم كيف تحوّل من طرق بعض زواياها هنا وهناك ، الى فَلْعِها وقشر رقائق منها ، وكيف نعّمها ودوّرَها وحدّد حروفها وصقلها حتى غدت ادوات نافعة ، وجميلة ايضاً . ثم اذا تصوّرت هؤلاء الاسلاف القدامى يفكرون او يتعلمون ان يفكروا، ويتكلمون او يتعلمون ان يتكلموا في اثناء عملهم واذا الحاجة البسيطة الملحة الى قطعةٍ من ظرّان تصلح لقتل الذئب ، تتحوّل بين ايديهم الى غبطة الحيازة على اداة صنعت لغير غرض خاص ، او لانها ذات جمال . واذا تبيّنت كيف تحوّلت عادة الارتجال فأمست صناعةً وتقليداً ، وكيف افضى تزايد الاتقان الى توليد قوى جديدة ، وحاجات جديدة ، وآمال وشعائر جديدة — اذا أنعمت النظر في ذلك كله وجدت أنه يستحيل عليك ان تنظر الى هذه الادوات الظرّانية وان تتصوّر صانعيها بغير ان يخالجك شعور الشفقة والاعجاب والمحبة لاسلافنا هؤلاء

الماهرين المجدّين ، ودون ان تراهم حلقة في سلسلة الصانعين والمخترعين التي ننتمي اليها ، ودون ان تجدّد إجلالك لنموّ العقل البشري .

ان تاريخ هذا النموّ هو التاريخ الحقّ . وقد جاءت مخترعات اخرى بعد الادوات الظرانية : السيطرة على النار ، والتحوّل البارع الذي يكاد ان يسحرك ، والذي احال كتل التراب خزفاً قاسياً صلباً ، او استخلص منها الفلزات التي تبقى ، واختراع العجلات التي لا تنفكّ تدرج على سطح الارض . وفي زمن ما ، متغلغل في القدم اخترع احد المهرة من الرجال الاستعانة بالحيوان – اي انهم اخذوا الحيوانات البرية الوحشية ، كالخيل والجواميس والخنازير التي كانوا يصطادونها ليأكلوا لحمها ، والذئاب التي كانوا في صراع معها ، وطيور الادغال والمستنقعات التي كانوا يصيدونها بسهام او شراك – اخذوها ودربوها ، رويداً رويداً جيلاً بعد جيل على العيش صابرةً راضيةً في صحبة الانسان وما اعجب ان ترى جرو الكلب في الزريبة يعوي ويضرب الباب ببراثينه ، لانه يريد ان يخرج لينعم بصحبة الانسان ، ثم ان ترمي البصر الى الوراء وتفكر في القرون المتطاولة التي استغرقها عمل تدجين اسلافه ، وكيف صيدت الجراء البرية وربيت مع اولاد الكهوف تلعب وتأكل وتتصارع وتنام معاً حول نار الكهف ، ثم تعدو وراء فريسة واحدة ، تنسر اللحم الطريّ

منها ، وتكسر عظمها ، حتى صار الكلب الى ما صار اليه الآن ، صديقاً للانسان اكثر من كونه خادماً له . وقد كانت القارة الاميركية يوم كشفت سنة ١٤٩٢ تؤوي ملايين من السكان في مراحـــل متفاوتة من الحضارة . كان عندهم كلاب اليفة ولكن لم يكن عندهم جياد ، وكانوا يملكون ادوات ظرانية واخرى مصنوعة من الفلزات الليّنة ، ولكن لم يكن عندهم لا حديد ، ولا محاريث، ولا عجلات . فأسلاف هؤلاء السكان ، كانوا قد كشفوا اميركا وجعلوا يقطنونها بعد ان اخترع البشر تدجين الكلاب وصنع ادوات الظرّان والخزف، ولكن قبل ان يخترعوا تدجين الجياد وصنع العجلات والمحاريث والحديد .

النباتات

ويعدل ما تقدّم عجباً ، بل يفوقه في ذلك ، اختراع النباتات. كلّ شيء نأكله تقريباً ، اذا استثنينا لحم الحيوان ، هو جزء من نبات ولّد توليداً دقيقاً من أصول مختارة : القمح والسكر والفواكه والجذور ، الطباق الذي ندخنه ، والقنّب والقطن اللذان ننسج اليافهما — هذه جميعاً وغيرها كثير ، كانت في زمن مضى ، نباتات برية تنمو في الادغال ، واذا رجل ذكيّ — او امرأة ذكية — يجد واحدة منها فيذوق طعمها ، او يمتحنها ، ثم يكتشف بالتجربة الطويلة الدائبة كيف يربيها ، فجعل يحسنها ويسمّدها ويزاوجها بغيرها ، فهو قد اخترعها حقاً كما اخترع ديزل محرّك الاحتراق الداخلي المعروف باسمه ، وقد ضاعت اسماء هؤلاء المخترعين ، الاّ ان

تكون مختفية وراء اسماء ديونيسيوس وديميتر وهياواثا ، التي لم تزل منذ قديم الزمان تجلّ على انها الآلهة التي علّمت البشر كيف ينتفعون بالنبات . ولكن دراسات علماء النبات والآثار في العصور الحديثة تحدثنا عن البلاد التي عملوا فيها. فمعظم النباتات الزراعية دجّنت في مناطق قليلة على سطح الارض . وقد جاء اكثرها من هضاب الصين الغربية ، ثم من الهند ، وجاءت الطائفة التي تليهما من الهند الشرقية ثم من نجود آسيا الوسطى ، حيث نشأت الحنطة التي نصنع خبزنا منهـــا ، ثم من آسيا الصغرى المنزل الاول لبساتيننا ورياضنا (وهل كانت جنة عدن غير هذا ؟) ثم من منطقة البحر المتوسط ، واخيراً من اميركا الوسطى ، ومرتفعات الاندلس ، وحوض الامازون ، ذلك الصقع الخصيب المحجّب بالاسرار، حيث وجد احـــد المخترعين في جيلنا ، سمّا هو الكوداري ، فأحاله وسيلة فعّالة من وسائل الشفاء .

هذه هي البداية الحقيقية للحضارة ، ففي ذلك العمـــل البطيء الدائب تمكن الناس من تحسين النباتات ، فأفضى تحسينها الى تحسين الناس ، ومن ثمّ بدأوا يعيشون عيشة استقرار ، وصاروا جماعة ، آية ذلك ان اسماء الأسر الاولى كانت تنسب الى الحرف التي تزاولها ومن هنا اسر : الفلّاح، والطحّان ، والبستانيّ ، والنجّار ، والحدّاد ، والصيّاد (يقابل هذه الاسماء العربية المنتشرة اليوم اسمـاء انكليزية لا تزال

من اوسع الاسماء انتشاراً : طحّان MILLER حدّاد SMITH نجار CARPENTER وما اشبه ذلك) .

ثم طرأت الفلاحة، فأصلحت الارض بازالة الشجر والعشب ونزح الماء ، وتلاها استكشاف صناعة الري المعقدة ، وهي صناعة ما نزال حتى يومنا هذا نعنى بتحسينها. ونشأة المزارع والمصايد والصناعات اليدوية تستتبع قيـــام سوق، والسوق توجد القرية ، وتكبر القرية فتصير بلدة والبلدة مدينة . ومتى زرعت الحقول ووضع نظام للريّ ، عمد الناس الى اختراع قواعد تتّبع ، وملاحظة تعاقب الفصول ، وهكذا نشأت القوانين ، وصنع التقويم ، واصبح الفلك ديناً وعلماً في آن .

وكذلك تمّ لنا عن طريق التعلم ، وتوسيع نطـــاق المعرفة ، ان انتقلنا من الحيوانية البدائية الى الانسانية البدائية المتوحشة ، ومنها الى الحضارة . وانت تسمع بعض الناس يقولون في هذه الايام « إن نشوب الحرب التـــالية خليق بأن يقضي على الحضارة » وقد يعني هذا نهاية عصر من عصور الحضارة ، وقد نصير نحن او من يبقى حيّاً منا ، او ذريتنا من بعدنا ، متوحشين مرة اخرى ، زمنـــاً ما ، ولكن ما دامت كرة الارض تصلح داراً للأحياء ، ومـــا دام مخّ الانسان الذي لا يزيد وزنه على ١٤١٧ جراماً هو هو ، اداة عجيبة للاستكشاف والاختراع والملاءمة ، فاننـا سنبقى قادرين على ان نعيد بناء الحضارة ، بل سنلفي أنفسنا مسوقين الى إعادة بنائها .

الفصل الثالث

الحضارة والفكر

في كلّ ثقافة من الثقافات العظيمة ضروب من البراعة خاصة بها، وهي جميعاً مظاهر رائعة للعقل وقوته. بيد ان ثقافتنا – الحضارة الغربية – هي اكثرها اخذاً به، فهي تفوق الثقافات الاخرى في كونها نتيجة للفكر المنظم. والعالم بأسره ينتفع بمخترعاتها، وقد اخذت عنها الحضارات الاخرى اساليبها العلمية، ومثلها في التربية، وتقديسها معرفة القراءة والكتابة، ثم جعلت تحوّلها.

وتاريخ الحضارة الغربية خلال ثلاثة الآلاف السنة الاخيرة – بما فيه من الوان الخطأ والسخف – لن يفهم على افضل وجه الاّ من حيث هو سجلّ حافل بمغامرات العقل المفكر. وقد قال غيبون ان التاريخ «لا يعدو ان يكون سجلاً للجرائم وضروب الحمق، والمصائب التي نزلت بالبشر» ولكن غيبون كان يعوزه المزاج والحكمة اللذان يمكنانه من تقدير

النشاط الفكري المتصل في ميادين القانون والدين والفلسفة والخبرة السياسية وتجربتها ، والابداع والتجديد في التربية وفنون الجمال ، وهذه وحدها هي التي جعلت كتابه في تاريخ انحطاط الامبراطورية الرومانية وتدهورها جديراً بأن يكتب ، ويلوح أنه لم يكد يوجّه عنايته الى ما سبق قيام الامبراطورية الرومانية من قرون عديدة كانت حافلة بالمآثر . كان ولا ريب ، مؤرّخا جمّ النشاط ، فخم الاسلوب ، ولكن عقله كان ضحلًا غير ذي روية . وأنت ترى ان الجرائم وضروب الحمق ، هي اشياء تشترك فيهـــا جميع المجتمعات البشرية . الرئيس العربيد ، والعالم المنحرف ، والكاهن الغليظ القلب ، والجندي الغبيّ — نماذج من الناس تجدها في الشرق والغرب ، والشمال والجنوب ، وتراها في الاكواخ والقصور، وقد نشأت في العصر الحجري ولن تزول من العصر الذري . ولكن الفارق الخاص الذي قامت ثقافتنا عليه وساعد على حفظها وصيانتها هو — **الفكر** .

اما الذين يساورهم الاسى على مستقبل الحضارة الغربية المضطرب ، فهم عـــادة قوم لا يعرفون تاريخها كاملًا . وهم ايضاً يسيئون فهم صلتنا بالاغريق والرومان ، فيتصورونهم شعوباً متغلغلة في بُعدها عنا ، وان حياتهم ومآتيهم شيء يعنى به علماء القديم دون غيرهم ، وان لغاتهم وافكارهم قد طاف بها طائف « الموت » . وليس ثمة ريب في انهم يحسبون

الاغريق والرومان أدنى منّاً الى « البدائية » بدلًا من ان يحسبوهم في غير ناحية واحدة أنضج منّاً رأياً وأبعد تقدما في المعرفة والخبرة . وكأنهم بما يفعلون يعدّون بيتهوفن متأخراً اذا قيس بأحد الموسيقيين المحدثين ، لأنه لم يكن يملك وسيلة من الوسائل الحديثة التي تعين الاصمّ على السمع. وحقيقة الأمر أن هذه الأخطاء مردّها الى ايمان ساذج فطير بالتقدم او الارتقاء على انه حركة متصلة خلال التاريخ ، تكاد تنطلق من تلقاء نفسها ، وانها تتبدّى اكثر ما تتبدّى في المخترعات الميكانيكية .

والارتقاء لم يكن حركة متصلة خلال الثلاث آلاف السنة الاخيرة من تاريخنا ولا خلال الثلاث مئة الاخيرة ولا الثلاثين . ليس الارتقاء خطّاً يسير سيراً مطرداً الى فوق ، الى ما لا نهاية له . انه خطّ منعرج ، فيه انحدار سحيق هنا وهناك يمثل كارثةً ما حلّت بالبشر ، وكل ذروة من ذرى المنعرج تمثل نجاحاً اصابته الحضارة الغربية . ودون الذرى العليا ذرًى متطامنة اخرى ، واكتاف ، تفضي اليها صُعُداً . واعلى هذه الذرى ذروتان تكادان تتساويان شموخاً . ونحن نقف على ذروة هي دون ذروة الاغريق والرومان في بعض الاشياء ، وعلى ذرًى اعلى من ذراهم في بعض الاشياء ، وينبغي لنا ان لا نغلّ النظر اليهم حتى نستطيع ان نفهم مصيرنا .

تبدأ قصتنا مع الاغريق بعيد السنة الألف قبل الميلاد. وقد نشأت حضارات أخرى قبلهم بزمن طويل، وكانت هناك حضارات معاصرة لهم، أغنى وأفخم، ولكن الفكر الاغريقيّ دون غيره، دأب على التفكير الجدّ ولم ينفكّ، وكان تفكيره يدور على الأكثر، حول معاني الانسان. وقد عدّ الاغريق انفسهم جزيرة يحيط بها «البرابرة» — وهذا اللفظ في عرفهم كان يعني الناس الذين لا يعيشون وفقاً لنواهي العقل: أناس ذوو أطوار غريبة كمثل المصريين القدماء الذين كانوا ينفقون الملايين على تحنيط موتاهم، واقوياء ذوو شراسة كالاشوريين الذين كانوا يعبدون آلهة نصفها حيوان، ورحّل بدائيون، لا يعرفون القراءة والكتابة، وكان لزاماً عليهم ان يحملوا اسلحتهم اينما ذهبوا، وذوو تعصب من أتباع الشعائر كاليهود، وشعوب مستعبدة كالاقوام الخاضعة لفارس. ونحن نتصور الاغريق على انهم كانوا قوما ذوي بشاشة وسكينة، نالوا السعادة المتزنة. ولكن لعلّ «نيتشه» كان على حقّ في انهم كانوا يحسون دائماً بضغط هائل واقع عليهم من قبل «البربرية» خارجهم وداخلهم، وان حضارتهم لم تكن نموّاً طبيعياً تمّ بغير مجهود، بل نتيجة جهد باسل، يحفزه ويدفع اليه توتّر نفسيّ حادّ. فكأنهم كانوا يشعرون كما تشعر حفنة من

العقلاء تعيش في عالم مجانين، فهم يخشون عدوى الجنون التي تهددهم ولا تكفّ.

ولكنهم كانوا اكثر الاحيان، يحسون انهم قوم بلغوا مرتبة النضوج، تحيط بهم عقول لم تتح لها فرصة النموّ، وان بعض هؤلاء، يستطيعون، وان كانوا برابرة، ان يتعلموا. فما كان الاغريق يتخذون لون البشرة للتفريق بين الناس، ولا كانوا يعترفون بوجود حواجز حول ثقافتهم قائمة على الجنس او الطبقة الاجتماعية او القومية، فكلّ «بربري» يستطيع ان ينضوي تحت لوائها اذا تعلم كيف يتكلم اللغة، وكيف يتصرف الرجل المهذّب، وكيف يفكر. وكثيرون من الذين نعدّهم إغريقاً خلّصاً، وردوا على اللغة والثقافة الاغريقيتين من بلاد نائية، اي «هاجروا» الى الثقافة الاغريقية. وبعض ما للقديس بولس من منزلة يرتدّ الى انه ولد ونشأ يهودياً ولكنه نبذ شعائر اليهود وانكفاءهم، ومضى يدعو الى ديانة عالمية باللغة الاغريقية، وهي لغة دولية، في العالم الاغريقي الروماني.

وفي امور العقل لم يكن الاغريق معلمي معاصريهم وحسب — كاليهود والبارثيين والرومان والمصريين والبرابرة المشردين والهنود البعيدين — بل كانوا ايضاً معلمي جميع الذين تبعوهم في حضارة الغرب الى يوم الناس هذا. انهم معلمونا ومعلمو ابنائنا. وليس في وسعنا ان ننكر ذلك

الاثر القوي . واذا نحن تجاهلناهم فقد جعلنا انفسنا عرضة لاضعاف عقولنا وافقارها ، وتجريد بيوتنا الروحية من فحواها وادخال ارواح غاشمة غبيّة لتقطنها .

وقد لخص احد كبار الاساتذة المعاصرين اثر الاغريق في كلمة واحدة ، ثم الّف ثلاثة مجلدات ضخمة لوصفها ، وهذا الاستاذ هو فرنر ياجر ، الاستاذ في برلين سابقاً وفي هارفرد الآن . اما الكلمة فهي « بيديا » واما الكتاب فعنوانه : (« بيديا » : « مثل الثقافة الاغريقية ») وقد وُضِع مؤلفه باللغة الالمانية ثم نُقِل الى لغات كثيرة ، واما الفكرة التي قام عليها فقد سلّم بها اهل الروية من علماء تاريخ الفكر . وخلاصتها هي كما يلي :

ان لفظ « بيديا » في اللغة الاغريقية يعني « التربية » (وهو اللفظ المستعمل في المقطع الاخير من كلمة « انسكلوبيديا ») ، ولكنه يعني ايضاً الحضارة ـ الثقافة في اسمى معانيها . وذلك لان الاغريق كانوا يعتقدون ان كلّ حضارة وكل ارتقاء يقومان على التربية ، التربية التي تدوم ما دامت الحياة ، والاستمتاع بأعلى قوى العقل وتحسينها تحسينا لا نهاية له . اما شعوبنا فقد اخذت بأن حضارتها تعني القوة والسلطان ـ او خدمة إله او ملك ذي سلطان منزل ، او الثروة والرفاهية . وثمة شعوب كثيرة في عصر الناس هذا يبدو كأنها تؤمن بأنه اذا اتيح لكل

فرد كفايته من الطعام والشراب ، واذا حاز سيارة وبضع آلات أخر ، فان الحياة تبلغ ذروة الكمال . وقد كان الاغريق يستمتعون ايضاً بالحياة واطايبها : الخمر ، والنساء ، والغناء ، والرياضة ، والرقص . ووقف كثيرون منهم كل كيانهم على الملذات ، والمسرات العابرة ، ولكنهم كانوا يعرفون ، في صميم نفوسهم ، ما هو أفضل من ذلك ، وكان اعظم اعاظمهم يقفون حياتهم على الولاء له ويحرصون على الظفر به والحفاظ عليه ، وهذا الشيء هو بكل بساطة تحسين العقل . وقد نظم شعراؤهم الشعر ، وألف فلاسفتهم ومؤرخوهم الكتب ، وخطب خطباؤهم ، لكي يعينوا الناس على التفكير . فقد كانوا معلمين : هوميروس ، وأسخيلوس ، وارسطوفانيس ، وثوسيديديس ، وافلاطون ، وارسطوطاليس ، وبندار ، وسيمونيديس ، وميناندر ، هؤلاء وغيرهم كانوا في المقام الاول : اطباء نفوس او حكماء .

وهذا هو السبب الذي لا يزال يحملنا على مطالعة مؤلفاتهم ، ونحن نطالعها لا لأنها «تاريخية» بل لأنها تعلمنا وتحملنا على التفكير ، ولن تجد في مكان آخر من الآداب العالمية ، في أية لغة من اللغات ، أو عصر بعينه ، مجموعة من الكتب تتصف بما تتصف به كتب اليونان ثم كتب الرومان بعدهم ، من ثروة ذهنية وتنوّع وتفكير عميق . والغرض الأول من دراسة اللغتين اليونانية واللاتينية انما هو للاستعانة بهما

على قراءة هذه الكتب في لغتها الأصلية . وكل غرض آخر هـو ثانوي او يطلب للتخصص . أما الترجمات فلم تبلغ الغاية من الجودة – وبعض ذلك مردّه الى قلة المترجمين المجيدين ، وبعضه الى ان اللغة الانكليزية افقر واضعف من اللغة الاغريقية ولم تبلغ حتى الآن في لطافة تعبيرها مبلغ اللغة اللاتينية .

وليس بالغريب ان تنصرف اذهان القراء الغربيين الى تلك المجموعات من الكتب التي تعرف باسم العهد القديم والعهد الجديد . واذا جـاز ان تعقد موازنة بين كتب الكتاب المقدّس وكتب الاغريق والرومان ، فلا مفرّ من الاشارة الى فرقين خطيرين . امـا الاول فهو ان اسلوب الكتاب المقدس ابسط كثيراً وادنى الى الرتابة ، وان كتبه اقل عناية بالتركيب المنطقي والفني . اما الثاني فهو ان الكتاب المقدّس يعتمد اكثر ما يعتمد على السلطة والوحي فنواهيه بلّغت من اله الكون الى النـاس بوسائل شتى ووسطاء مختلفين . اما الاغريق وخلفاؤهم الرومان فلا يستعينون بالسلطة الالهية ، والصوت الذي يصغون اليه ليس صوت قوةٍ من وراء طاقة البشر ، بل هو صوت العقل يبحث في تؤدة ، ما هو كائن ، وما كان ، وما ينبغي ان يكون . وقد سئل احد الحكماء في عصرنا ما هو الاثر الفذّ الاكبر الذي خلّفته يونان واضافته الى خير العالم فقال : أعظم اختراع تمّ للاغريق هو قولهم : « إما كذا وإمـا كذا » وبغير

هاتين الكفتين في الميزان يستحيل على المرء ان يفكر .

وإذن فالاغريق قد علّم بعضهم بعضاً ، بالتفكير والتحدّث والكتابة . ثم علموا بقية العالم الغربيّ . ولعل اعظم غبطة يصادفها المرء في دراسة تاريخ الفكر وفنون الجمال ، هي ان يتبيّن كيف تتجلى افكارهم — او بالأحرى افكار العقل الذي كانوا هم صوته الناطق — حيناً بعد حين في ازمنة غابرة ، واشكال وصور معقدة ، وبين اقوام لا يعرفون سوى القليل من اللغة الاغريقية معرفة مباشرة . وهذا في حدّ نفسه من الادلة الأصيلة على قوة العقل الحرّ . واذا فتحتَ المهزلة الالهية لدانتي وتتبعت الشاعر في وصف هبوطه الى الجحيم المنقسم ثلاثة اقسام حيث يعاقب على العهر والعنف والخداع ، تبينت النظام الاخلاقي الذي وضعه الفيلسوف الاغريقي ارسطوطاليس ، واذا شاهدنا « ماكبث » ، مأساة شكسبير ، لاحظنا ان شكل المأساة ومعناها الاساسي هما من اختراع شعراء الاغريق . اما توازن السلطات الذي يقوم عليه الدستور الاميركي فقد صاغه اولاً مفكر اغريقي ، وكذلك كان المعلمون الاغريق اول من وصف المثل الاعلى — اخاء الناس !

الاغريق والرومان

كان الرومان التلاميذ الأوّل للاغريق ، ولم يكن فيهم

ما يبشر ، فأطلق الاغريق عليهم لفظ « البرابرة » عند اللقاء الاول ، وقد عدّوهم قوما ذوي عزم ومضاء ، ولكنهم عدّوهم ضعاف العقول ايضاً . وقد دخل في طوق روما ان تخضع العالم الغربي لسلطانها وان تدير شؤونه ، غير مستعينة بالفن الاغريقي ، ولعلّها كانت خليقة ان تظلّ ، كبعض الامبراطوريات الحديثة ، دولة ذات بربرية وجفاء حتى بعد ان قبضت على زمام الثروة والقوة . ولكن الرومان ، انحنوا بتواضع وهم في غمرة فتوحاتهم ، وجعلوا يتعلمون من الاغريق. لم يكن عندهم يومئذ آداب ذات قيمة باقية ، ولا علوم ، وما كان في وسعهم ان يفكروا تفكيراً فلسفياً ، حتى لغتهم برغم قوتها وليونتها ، كانت غليظة . فعلمهم الاغريق في جميع هذه الميادين ، وكجميع المعلمين الصالحين ، ابرزوا فيهم خلال تعليمهم إياهم صفاتٍ كامنةً كانوا هم ، الاغريق ، خلواً منها او يكادون ، فأسفر كلّ ذلك عن ازدهار جديد للثقافة الاغريقية في منبت جديد هو ايطاليا — او قل وهو أصدق ، إنه أسفر عن خلق ثقافة جديدة مشتركة هي الثقافة او الحضارة الاغريقية الرومانية ، التي اندمج فيها عنصراها شكلًا وفحوى ، اندماجاً لا انفصام له . ان قصيدة فرجيل « الانيادة » هي اللغة الرومانية وقد افرغ في إنائها الخيال الاغريقي ، أو هي الشكل الاغريقي وقد تسامى فيه شعور روما برسالتها واقدامها وتبعتها وتقاليدها . (اما المهزلة الالهية

لدانتي والفردوس المفقود لملتون فهما احدث عهداً ولكنهما صنوان وتابعان لانيادة فرجيل .)

وقد كانت تلك الحضارة بما انطوت عليه من علم ودقة نظام وانتاج واحترام للقانون وذكاء وذوق وأدب وحريات روحية وفردية — اذا استثنينا عهود الحكم الفاسد والازمات الخطيرة – كانت تلك الحضارة في اكثر وجوهها اكبر نجاح احرزه الناس في العيش الاجتماعي ، في العالم الغربي . فقد كان عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة في السنة ١٥٠ بعد الميلاد اكثر كثيراً من الذين يعرفونها في السنة ١٣٥٠ او ١٥٥٠ او حتى ١٧٥٠ او ١٨٥٠ بعد الميلاد . وكان العبيد في السنة ٢٠٠ بعد الميلاد افضل من عبيد الاقطاع في السنة ١١٠٠ او ١٨٥٠ بعد الميلاد ، وأحسن حالا ، بما لا يقاس ، من المسجونين العبيد في معتقلات المانيا سنة ١٩٤٤ ومعتقلات روسيا سنة ١٩٥٤ . وليس ثمة ريب في ان حضارة الاغريق والرومان كانت غير كاملة من جميع نواحيها — وايُّ اثرٍ من خلق الانسان يبلغ الكمال ! — ولكن محاسنها ومزاياها كانت اكثر من مساوئها فكانت من هذا القبيل افضل من معظم الثقافات الاخرى في تاريخنا . وبخاصة في موضوع المعرفة ونشر الفكر نشراً حرّاً . فقد كانت المدارس قائمة في كل مكان او تكاد . وكثر وجود الكتب وخزائنها في اوربا وافريقية الشمالية ومصر والشرق الادنى . وكان المعلمون

والفلاسفة الجوّالون والخطباء والدعاة الدينيون والاجتماعيون يقطعون المسافات البعيدة بين مدينة ومدينة ، يتناقشون في فصاحة ويشرحون في حرية. وافضل وثيقة تبسط هذا النشاط هي «كتاب اعمال الرسل» في «العهد الجديد»، فاذا راجعته وجدت فيه كيف عمد محافظ مدينة افسس الى تهدئة روع الشعب بحجته اللطيفة بعد ان ثار فيها شغب على بولس الرسول يوم قام يكرز ضدّ عبادة الاصنام، ثم نلاحظ كيف يتودّد اليه اهل الفكر في اثينا.ويدعونه ليشرح لهم مذهبه الجديد ، ثم كيف صرفوه في ادب حين تبسط في موضوع «قيامة الجسد» وكيف انتهى الامر في هدوء بعد عودته الى روما «يكرز ويعلم وهو واثق ، وليس ثمة رجل يمنعه من ذلك». وقد حفل عالم الاغريق والرومان بألوان من النزاع ولكنها كانت جميعاً دليلًا على حركة الفكر ، فلم يكن ثمة ثبَتٌ بكتب محرّمة. اما الرقابة فكانت محدودة وخفيفة وعلى فترات قصيرة ، واما الشرطة السرية فلم يكن لها وجود كمؤسسة من مؤسسات الدولة. وكان التزام الناس للعرف وتقيّدهم به اقلّ كثيراً مما نراه اليوم في دولة قومية حديثة . والحقيقة انه لو اتيح لنا ان نعود يوماً واحداً الى روما او اثينا او انطاكية او مرسيليا كما كانت في العصر القديم ، لوجدنا فيها ما يحيّر من تباين الرأي وخروج على المألوف ، وما حفلت به من إغراء بالتحرّر الادبي والعقلي ، على وجه قلما تلقاه في شعوب العصر الحديث.

والنصارى الأول نالت منهم حريات العالم الاغريقي الروماني اكثر مما نالت منهم قيوده، فقد كانوا يتمنون تضييقاً للحرية بعض التضييق، لا مزيداً منها.

الانهيار، البقاء، الانبعاث

ولا يدري احد لِمَ انهارت تلك الحضارة المتصفة بالسعادة والفكر. ولا كان اهلها يدرون. ولن تجد بين الناس اليوم احداً سوى فئة قليلة من كبار العلماء تستطيع ان تقدّر الاسباب الرئيسية وتبوّبها، ومع ذلك فاننا على يقين من شيء واحد هو ان الجانب الغربي من الامبراطورية، اي الجانب الروماني، هو الذي سبق الى الانهيار. اما الجانب الشرقي، الذي يتكلم اهله باللغة الاغريقية فقد صان كيانه من الحملات المتصلة الموجهة اليه مدة الف سنة اخرى. ولو سئل الباحث ان يقترح تفسيراً واحداً لذلك الفـــارق بين الجانبين، لكان خليقاً به ان يقول ان رجال الغرب آثروا الثروة والملذات، واما رجال الشرق فقد آثروا التفكير. وما زال الامر كذلك حتى افضى حب السلطان والاستغراق في الملذات الى ايهان شدة الرومان وشعوب الولايات التابعة لهم. اما الاغريق المتصفون بالمرونة فقد مضوا في طريقهم يتحدثون ويتناقشون ويحاربون ويخترعون. والعقل ان لم تهمله وتكف عن استعماله مَعينٌ لا تنضب قواه.

وحتى بعد ان دمرّت الامبراطورية الغربية ، وتخربت الطرق ، وتهدمت الجسور ، وامتلأت المرافئ بالرمـــال ، وقطعت اقنية المياه ، وسدّت المصارف ، وحرقت المستشفيات والمكتبات وتحوّلت المباني العامة الضخمة الى منازل للمعطلين ، وبعد ان انحلّت اللغة وصارت لهجــات ، وأمست معرفة القراءة والكتابة شيئاً نادراً وادنى الى السحر ، واضحى الكثيرون من الكهّان او القادة او الملوك وهم لا يكادون يقرأون اسماءهم او يكتبونها ، وبعد ان تداعى الى التراب حكم القانون ، وقام السلطان المنظم لاشقياء النظام الاقطاعي ، بعد هذا كله تجد ان حركة الحضارة الغربية لن تفهم عــلى خير وجه وافضله الا اذا نظرت اليها على ان حركة تعلّم. فأفسد الامور لن يدوم . وأفسدها لم يدم حتى في العصور المظلمة . ففي المدن التي كثرت فيها عصابات السلب والنهب التي تدمّر ما لا قبل لها بفهمه ، كان ثمة فئة قليلة من المتفائلين الحكماء ، يهجرون الدنيا الى اماكن منعزلة هادئة ، يتعلمون وينسخون ويصونون التراث . ففي دير هنا ، وغرفة منفردة هناك ، جلس طلّاب المعرفة يدأبون عــلى فهم الافكار الخطيرة التي خلفها العصر القديم في نثره وشعره ، وعلى تعليم غيرهم ان يفهموا وينقلوا ما يفهمون ، وكذلك استطاعوا ، رويداً رويداً ، ان يبنوا عالم العقل المحطّم بناء جديداً .

وحتى البرابرة تعلموا من العــالم الاغريقي الرومـاني بعد

ان اغاروا على حضارته ودمّروا شطراً كبيراً منها . فمن اعماق ذلك الظلام استطاع اسلافنا ان ينهضوا شيئاً فشيئاً ، كما نهض اسلافهم من اعماق ظلام اظلم ، او كما قد يفرض على اخلافنا ان ينهضوا مرة اخرى . إنهـــا لقصة طويلة معقدة تشمل ألف سنة حافلة بالصعاب ، ولكن اذا قررنا ان الغرب بلغ الحضيض حول السنة ٥٠٠ بعد الميـــلاد ، تبينا ثلاث مراحل رئيسية في النهضة التي تلتها :

١ – سنة ٨٠٠ التي انشأ فيها شارلمان نظاماً سياسيا تخطّى الحدود القومية ووضع أسس التربية العالية عـــلى نطاق واسع . (فالحروف الغربية الشائعة اليوم في الطباعة اخترعها علماء شارلمان تلبية لرغبته) .

٢ – سنة ١١٥٠ يوم كانت ثقافة القرون الوسطى التي تفوق ثقافة عهد شارلمان سعة وتوهجا ، مزدهرة في الكتب والمعاهد والمعابد والعقول الكبيرة .

٣ – سنة ١٤٥٠ يوم شرعت اوربا الغربية تقبض مرة أخرى على عنـــان الفكر الاغريقي الروماني كله ، وترمي بصرها بطرق شتى الى آفاق وراءه . ففي هذه الالف من السنين كان اسلافنا يتتلمذون على الرومان اولا ثم عـــلى الاغريق . وعـن طريق التعلّم امسكوا بزمـام الحضارة . فأصحاب اكبر العقول في حضارتنا منذ سنة ١٤٥٠ كانوا

عيالاً في المعرفة على الرومان والاغريق . ولم نأخذ عنهم بعد كلّ ما ينبغي ان نأخذ، فلا يزال بيننا برابرة ، وقد كان ادولف هتلر ، بصليبه المعقوف وشعائره الدموية وكرهه للمنطق احدهم ، وسيليه آخرون .

ومع ذلك فالذي يبعث على الغبطة هو ان نلقي نظرنا على تلك الفترة الطويلة ، فنرى – مع ان عمل التعلم لم يكن عملا مطرداً – كيف اخرجت قدراً كبيراً من خير ما عندنا . ففي وسعنا ان نراقب نموّ التفكير الفلسفي والديني في اوربا واميركا، فنلفيه نضالا مديداً حاول فيه المفكرون في اربعين جيلًا متوالية ان يفهموا عقل افلاطون القويّ ، وان يقاوموا اغراءه . وفي وسعنا ان نتصور مؤلفاً في تاريخ الخطابة الغربية فنتابع كوكبها متهادياً من منابر الكنائس الهادئة الى منابر الثورة ، فنتبين بذور عبقرية شيشرون في تضاعيفه . وفي وسعنا ان نقرأ طائفة من افضل الشعر الاوربي اذا رجعنا الى تلاميذ فرجيل وحسب . او قد نستطيع ان نتتبع المراحل التي مرّ فيها عقل رجل واحد – مثل جفرسون او غيته – اذا نحن استقصينا صلته الوثيقة بالكتب القديمة الاثيرة لديه طوال حياته . ان كاتدرائيتي القديس بطرس والقديس بولس ، وقصر اللوفر في باريس ، ومبنى الكابتول في وشنطون ، هي مبان اغريقية رومانية ، وجانب كبير من الفكر والفن المخلدين فيها هو

الابداع الخالد للعالم القديم . وكثير من افضل مـا نجده في الثقافة الغربية خلقه الاغريق والرومان او اوحوا به . ولو كتب على حضارتنا الانهيار من حوالينا ، كما انهارت حضارتهم ، فعلى اخلافنا ان يبنوا من جديد ، كما يفعل سكان مدينة دمّرتها القنابل ، معتمدين على الاسس الثابتة التي وضعت في العصور القديمة ومستعينين ببعض اللبنات التي نخلّفها نحن .

الافكار والتاريخ

ومع ذلك فمـــا تقدم ليس سوى قصة ثقافة واحدة . فقد علّم الاغريق الرومان واضاف الرومان شيئاً كثيراً من مبتكَرهم . وقد مدّن الغرب الحديث نفسه بالتعلّم ، على الاكثر ، والأخذ من مُنجِبه العالمِ الاغريقي الروماني . ولعلنا نستطيع ان نستبين في عصرنا هذا علاقة تشبه هذه العلاقة . ان اوربا الحديثة ، بما فيها من براعة ، وجدل وحفز ، اوربـــا المنسحقة والمستندة في الوقت نفسه الى مـــا لهـــا من تقاليد عريقة غنية في الفن والفكر ، — هي من غير ناحية واحدة كاليونان القديمة . وامـــا اميركا الشمالية والجنوبية في العصر الحديث ، فهي بالقياس الى اوربا ، كما كانت روما بالقياس الى اليونان . كلتاهما ابسط ، واجنى ، واعنف وادنى الى الروح العلمية ، واجرأ ، واشد تفاؤلا ، كلتاهما شديدة الاحترام للتقاليد القديمة ، وشديدة العزم صادقة

النية أيضاً على ان تضيف اليها قوى وفضائل جديدة تخلقها هي — وهذا موقف حكيم .

اما قصص الحضارات الاخرى — الصينية والاسلامية والهندية والاميرندية (الاميركية الهندية) — فانها تثير من الاعجاب ما تثيره قصة الحضارة الرومانية الاغريقية ، وذلك بما تنطوي عليه من نمو داخلي اصيل تمّ بوساطة الاختراع الدائب ، والتعلم والتعليم ، في الشعب الواحد ، او في جماعة من الشعوب . واعجب من ذلك الوسائل التي مهّدت لنقل الافكار والاساليب والمعتقدات الدينية والنماذج الفنية ، والمبتكرات التي قد تتفاوت بين لحن شعبي ساذج وعلم عظيم خطير ، من ثقافة الى ثقافة اخرى تبعد عنها زمانا ومكانا ، وتختلف عنها نظاما ونطاقا ، وكيف تُضحي الثقافة المنقولة اخطر شأنا في مثواها الجديد منها في منبتها ، وكيف تُحدِثُ في الحضارة الجديدة التي تدخلها ، وجوها من التغيير الاصيل يشمل هيكلها كله .

وعلى قدر ما ينبغي ان تكتب قصة كل حضارة على انها حكاية تفكير وتعلم وتعليم (بقدر ما هي حكاية تاريخ السلطان والثروة) كذلك ينبغي ان ننظر نظرة جديدة مضيئة كاشفة الى تاريخ البشر في ثقافاتهم المختلفة ، والى انتقال الفكر من جماعة الى جماعة على سطح الارض . وكثيراً ما نسيء فهم تطوّرات تاريخية خطيرة اذا نحن

فسّرناها تفسيراً سياسياً او حربياً او اقتصادياً . فإذا ما انعمنا النظر فيها على انها احداث عقلية ، اتضح مغزاها الاكمل . وحسبنا مثلًا واحداً من آسيا المعاصرة . ففي الامبراطورية الروسية ، نحو عشرة ملايين من المسلمين اكثرهم منحدر من الترك . فما هو الفرق بين خضوعهم للقياصرة وخضوعهم للشيوعيين . ان الفارق يُفهم على افضل وجهٍ اذا ادركنا حقيقة واحدة تمتّ الى التربية بأوثق سبب — بل هي التربية. فالمسلمون في الامبراطورية الروسية ظلّوا الى ما بعيد الثورة يستعملون الحروف العربية . وفي اواخر العقد الثالث من هذا القرن ألغيت هذه الحروف إلغاء رسمياً وحلّت محلّها ابجديات اخرى تعتمد على الحروف اللاتينية ، فكان ذلك هفوة ، لان حكومة تركيا اعتزمت ان تستعمل الحروف اللاتينية ايضا ، ومن اجل ذلك حظرت موسكو استعمال الحروف اللاتينية سنة ١٩٣٩ واحلت مكانها ابجديات قائمة على الحروف الكيريلية (المأخوذة عن الاغريق وهي التي يستعملها الروس في منطقة موسكو). هذان التبديلان يدلان على ان الحكومة الشيوعية انتوَت ان تقطع الصلة بين هؤلاء القوم وتاريخهم الاسلامي ، وان تفصم العرى بينهم وبين اقاربهم في تركيا ، فتحيلهم الى اقوام يعتمدون على موسكو . فالشيوعيون لا يحاولون ان يجعلوهم شيوعيين وحسب بل شيوعيين مسكوفيين ايضاً . فاذا نجحوا كان ذلك نتيجة لتطبيقهم تطبيقاً كاملًا عملا من اعمال التعلم والتعليم .

والحقيقة هي ان تاريخ جانب كبير من القرن العشرين بنضاله ضدّ الشيوعية والفاشية والاشتراكية الوطنية وغيرها ، لن يكتب افضل كتابة ، إلاّ من حيث انه سجلّ لحرب غرضها السيطرة على عقول الناس. فالشيوعية والفاشية والاشتراكية الوطنية وغيرها من مذاهب عبادة الدولة ، فيها إغراء قويّ لذوي العقول الساذجة . وهي مجموعات من الافكار بعضها مصيب وبعضها مخطئ ، ولكنها تؤثر في النفوس بما فيها من جرأة وصفاء ، وبما تزعمه من قدرة على تفسير مشكلات البشر تفسيراً عقلياً كاملًا. ان شطراً كبيراً من مستقبل البشر رهن بالبراعة التي يُعمَد اليها لتربية الناس على هذه الافكار ، او لقرع حجتها بحجة اقوى ، أو لإحداث تبديلٍ فيها حتى تلبس غير لبوس لتوافق كل مجتمع على هواه ، ولتتسق مع الحقائق التي لا تحول ، أو لردِّها ونسفها بنقد نافذ ، او لنبذها حتى يحلّ محلّها آراء اصدق وانفذ ، في حلّ المشكلات الانسانية الاصيلة .

الفصل الرابع

كنهه لا يُدْرَك

ليس في وسعنا اليوم ان ندرك مراحل هذه الحرب التي نخوض غمارها – والتي تستهدف استعباد العقل او تحريره. ومن المستحيل ان يتكهن المرء بحركة الذهن البشري، بل من العسير ان يؤرخ لها ويفصل عناصرها. ولا ادري أفي طاقتنا على الاطلاق ان نضع تاريخاً للفكر محكم النظام، يشرح القوانين التي يخضع لها في نموه وحركته ويفسّرها. ولكنني اعلم ان الذين يعنون في هذا العصر بدراسة هجرة الافكار وانتقالها من بلد الى بلد، يجدون وضع هذا الكتاب فوق طاقتهم. فالمؤرخون من امثال سوروكين وطوينبي، وعلماء الانسان من امثال كرويبر ولنتون، يعانون مشقة كبيرة، في وصف الحوافز المتشعبة التي لا حد لتنوعها، والتي توقظ العقل من سباته، او في تبين الطرق المتعددة التي يسلكها الفكر من عقل الى عقل، او من منطقة الى اخرى. وكل ما ظفر به العلماء حتى اليوم انما هو قواعد

عامة غامضة فيها معوان على فهم ما يكون ـ فالعقل من العجائب او من الالغاز .

فمن العسير مثلا ، ان ندرك كيف يتأتى لشعب واحد ان ينجب في قرن واحد ، الف مخترع وفيلسوف وشاعر وسياسي ، ثم لا تكاد تنقضي بضعة اجيال حتى يخرس لسانه ويعقم فكره. ولِمَ يزخر بلد ما بنشاط عقلي ما دام فقيراً مهدداً بالمخاطر ، ثم يقع في غيبوبة من التراخي متى ظفر بالثروة والامن ، على حين ترى بلداً مجاوراً له ، يظل صامتاً خلال قرون من الفاقة والذلة ، واذا به يفصح بعد ان يُضحي ذا سلطان ومال ؟ وكيف تفسر ما يقع داخل بلد ما ، وفي ازمنة متفاوتة ، من إعجاب بالعلماء آنا وإهمالهم آنا ، او من إكرام للشعراء حيناً واستنكارهم وحشرهم في عداد ذوي الاطوار الغريبة من الناس حيناً آخر . إننا نعلم حق العلم ما يقع حينا بعد حين ، لرجلين او لجماعتين في اقطار مختلفة من الظفر بكشف واحد ، او ابتداع افكار واحدة ، دون ان تكون ثمة صلة معرفة بينهما . ان هذا لغريب ، ولكن اغرب منه ان يقرأ المرء تاريخ العبقرية ، مستطلعاً متبيناً عدد العقول الشوامخ التي نجمت في بلاد منعزلة ، او قبائل متوحشة ، او عصور اثقلها القدع والعنف البغيض .

اذا صعَّد المرء في الجبال الغربية ، فانه يعبر في الحين بعد الحين ، كتفاً من صخور مكسرة كالحة ، لسعتها الرياح بسياطها ، او ضربها الثلج ، واذا به يلتقي في طريقه فجوة صغيرة ، وفي الفجوة ضمة من الازاهير المشرقة الندية . وقد يلقي نظرة في الحين بعد الحين من ذروة بلغها ، فيرى احد مخارم الجبال القاحلة ، حيث الجدران الصخرية تردد صدى هدير النهر المتدفق في القاع ، او دمدمة الكتل المتداعية ، ومن فوقها الذرى الذاهبة في الفضاء ، ويتبين ان ليس فيها رقعة من خضرة ولا حفنة من تربة مغذية على مرمى البصر ، واذا به يرى عند وسط المنحدر شجرة صنوبر مدت جذورها في تربة لا ترى ، ورفعت رأسها وبسطت اذرعها الضارعة في الهواء ، فآبت اليها العصافير ترف فيها ومن حواليها .

ان متعة هذا المشهد لا تقلّ عنها متعة مطالعة التاريخ لعصر دامٍ ، فتقرأ فيه وصف الاغتيال والتعذيب ، وتسمع ما يتردد في اروقته من اصداء الهدير الاليم الخافت ، والاناشيد المخنوقة ، وصيحات العنف الاهوج ، واذا بك ترى في وسط كل هذا ، عقلاً كريماً نزلت عليه السكينة ، يدرس الطبيعة ، ويصنع الشعر ، او لعلك تكشف بين الفلاحين الكادحين او في اوساط الناس المكتئبين ، عقلاً قوياً يتمرس

بمصارعة الارقام المجردة ، او يبدع المخترعات الفذّة ، او ينشئ للكون تفسيراً محكم النظام .

كذلك كان بوذا ، وسيكويا ، الهندي الاحمر من قبيلة شيروكي، الذي اخترع وحده، لغة مكتوبة لقومه. وكذلك كان اعظم فلاسفة القرون الوسطى – يوهانس ساكوتوس اريوجينا ، – يوحنا السلتي من ارلندة – الذي يكاد يكون وحيداً في ذلك العصر من الاوروبيين الغربيين ، اذ استطاع ان يتعلم اللغة الاغريقية ، وان ينشئ صورة فلسفية روحية عظيمة للعالم الروحي ، يعجز اي مفكر في عهدنا عن مجاراتها . وكذلك كان غريغور مندل ، ذلك الراهب الهادئ الذي التزم جادة الصبر في تفكيره وعمله في حديقته ، حتى كشف لنا بعض القوانين الاصلية للوراثة . وكذلك كان الكثيرون من اهل الفن الذين عاشوا مغمورين ، وكاد نسيج النسيان ان يلفّ ذكراهم ، ولكنهم خلفوا لنا آيات في الجمال . اننا نعرف اسم اليخادنهو ، ذلك الرجل الذي يثير شفقتنا ، ولكنه مع ذلك صار اعظم مثّال في اميركا اللاتينية . اما الذين حفروا النقوش في كاتدرائية شارتر ، فلا نعرف عنهم سوى ما خلفوا من اثر ، وليس في وسعنا ان نخمن تخميناً اسم الجنس من البشر الذي انجب ذلك الفنان الذي صنع من الشَّبه رؤوسا بديعة الشكل وجدت في موقع بنين بافريقية الغربية .

تركيب جديد

لا تقتصر المفاجآت في تاريخ الفكر على ظهور العباقرة هنـــا وهناك كالقمم الشوامخ المنعزلة ، بل تشمل ظواهر لا يتوقعها المرء ، ولا يكاد يسعه ان يفسّرها . فثمة رجال يحسنون التعبير عن عصرهم وبيئتهم التي تربّوا فيها ، ولكنهم بما يتصفون به من توهج الخيـــال ، وسعة المعرفة ، وتعدد نواحي القدرة تعدداً مدهشاً ، تراهم يرتفعون فوق مستوى عصرهم وجيرانهم ، فكأنهم من اهل زمانهم والابدية جميعاً. فاذا عمدنا الى تحليل عقولهم كان في وسعنا ان نتبين جميع العناصر التي تتألف منها تقريباً ، فنرتد بهذا العنصر الى الاسرة ، وبذاك الى المدرسة ، وبغيرهما الى الوسط الاجتماعي ، ومع ذلك فان العقل المركب من تلك العناصر هو اكبر واعظم من العناصر في مجموعها – فهو اغنى ، واشد توهجاً ، ويختلف في صفته الاصيلة كما تختلف الماسة عن الكربون . والذين لا يعنون الا بالضحل من امور الفكر ، يعجزون عن ادراك هذا الفرق النوعي وظهوره مرة بعد مرة في عالم الذهن . وهذا هو ما يحدو بعض النقاد الى ان ينكروا على شكسبير قدرته ان يؤلف مسرحياته ، لا لشيء سوى انه كان شاباً من اوساط الناس في الارياف ، ولم يذهب إلاّ الى مدرسة في بـــلدة صغيرة ليتعلم التمثيل . فكأنهم فيما يتوقّعون يحتّمون ان يكون المؤلف الحقيقيّ رجلاً يستطيعون هم

ان يدركوا كنهه ، كالمحامي الذي يتلقى علومه في جامعة ، او كما يكون السياسي ، او كنبيل شاب انيق ظريف ، تجري في دمائه معـــارف عهد النهضة وتجاربه الاجتماعية . ولكنهم عـلى خطإ . إنهم يرتكبون خطأ اساسياً بسيطاً ، مؤداه أنهم يعتقدون ان في عالم العقل لا بدّ ان يكون حاصل جمع اثنين الى اثنين ، رقماً لن يتغير ، هو : اربعة .

ان تعليم هؤلاء الناس الافذاذ شيء مستحيل ، ولكن من نعم التعليم القليلة عـلى المعلم هي ان يتبين وهـو يعلم ، مرة بعد مرة ، كيف يخرج من جمـــاعة طلابه الاوساط ، طالب ليس فيه عـلى مـا تبدو صفة من صفات الامتياز ، ولكنه قد يسمع ملاحظة عابرة من معلمه او قـــد يثيره موضوع جديد ، فاذا بعقله قد حُفِز ، واذا شخصيته تتبدل ، وحكمته تنمو . ويجعل يبتكر افكاراً اصيلة خـــاصة به ، وينضج نطقه وتحسن كتابته، فيعيش وكأن الحياة تستحثه ، فيسرع تبدله حتى ليسبق اصدقاءه . ولو رأى نفسه كما كان منذ اثني عشر شهراً لانكرها وعجز عن تذكرها . وكيف تمّ ذلك؟ مصادفة سعيدة ، او مجهود علويّ ، ماذا نقول؟ فليس ثمة صور تعيننا على وصف ما حدث ، فهو لغز ككل عمل حيوي ــ لقد حدث شيء ، واذا طاقة العقل التي كانت متهافتة ومهملة ، والانفعالات التي كان يلهو بها من قبـل ، او كانت تلهو بـه ، قد اندمجت جميعاً في تركيب جديد ،

حي ، متوفـّز خلاّق . واذا اصدقاء الطلاب ... الدهشة ، ولكنه قلما يدهش هو ، لأنه يحس ... حدث لم يزد على انه تعلم ان يستعمل قوى ... المعلم فلا يدهش اطلاقاً لانه يدرك كنه الذخيرة ... في عقل كل طالب وما تطويه من قدرة وإبداع ، لا ... لها ، ولانه — من حيث هو معلم — لا ينفك يرجو ويسعى ... فتح الخزانة عن ذخائرها .

واضافة الى ذلك تجد اولئك الذين يعتقدون ان القوى والنتائج في حياة العقل هي اشيـــاء يدرك كنهها ويقدّر حسابها — كأولئك الذين يظنون ان بيكون او اكسفورد كتب مسرحيات شكسبير ، لان ذلك ايسر فهما — قلمـــا يعرفون شيئاً يذكر عن التاريخ الشخصي للعبقري . وقد كتب جون مايسفيلد قصيدة مؤثرة وإن كانت تعوزها الاناقة ، وهي تمثل شابا حزيناً منفرداً في بلد بعيد وكيف كان يحاول ان يبث الشجاعة في نفسه ، فقال :

شاهدت ازهاراً تنمو في اماكن صخرية ،

ورحمة يسديها رجال قباح الوجوه ،

والكأس الذهبية يظفر بها اضعف الجياد في السباق

ولذلك اومن ...

واحدى الحقائق التي لا يتطرّق اليها الشك في عظمة امجاد العقل – المخترعات والنظم الفلسفية ، والمسرحيات والصور ، والموسيقى ، والمكتشفات العلمية والمؤسسات السياسية – هي ان طائفة كبيرة منها ترتدّ الى رجال بدأوا حياتهم على نهج عادي او حتى في احوال غير مؤاتية ثمّ حلقوا بأجنحتهم متسامين فوق الاصول التي انطلقوا منها .

كان اسحق نيوتن ابن فلاح في لنكنشير ، ولم يكن ، شأن بعض الرياضيين ، ولداً نجيباً في حداثته ، بل كان طالباً وسطاً في جامعة كمبردج ، فلم تكد تنقضي بضع سنوات ، حتى انقدحت فيه الشرارة . اما غاوس احد قمم العباقرة في الرياضيات والكهربية المغنطيسية ، فكان ابن قرية كألوف ألوف غيره ، واما ونكلمان منشئ تاريخ الفن الحديث فكان يتردّى في الفاقة السوداء وبدأ حياته معلماً وضيعاً ، يعلم صفوفه طوال النهار ، وينام في مبنى المدرسة ، ولكنه كان يسهر نصف الليل ليعلم نفسه اللغتين الاغريقية واللاتينية تأهباً لعمله العظيم الذي كان يتراءى له غامضاً بعيد المنال . ثمّ هناك نجل سيد إيطالي وفتاة ريفية تعلم صناعة التصوير كما تعلمها ألوف من قبله ومن بعده . ولكن هذا الفتى كان ليوناردو دا فنشي . ان المصاعب التي من هذا القبيل تعرقل نمو العقل ، ولكنها لا تخمده ، بل عساها ان تحفزه حفزاً . حتى الرتابة ، وهي العدو العام للنمو ،

ليس في وسعها ان تفسد البذرة . فقد كان لويولا ، .. ،
الرهبنة اليسوعية ، جندياً جاهلاً في عصر حافل برجال حموا
بين السيف والسخف . وقد كان لوثيروس ورابليه راهبين
لا يميزهما مميز عن حشد كبير من الرهبان في بلاد وازمنة
اخرى . وكان سقراط بنّاء في مدينة تكتظ بالبنائين . كلّا

إن تاريخ الفكر البشري حـــافل بآيات التنوع والعجب والمفاجأة والغموض ، شأنه في ذلك شأن سائر ألغاز الكون. والعلم في بحثه عن القوانين يميل الى المغالاة في تبسيط الامور . ولكن العالم الحكيم يشقّ طريقه دائماً في عالم القوانين الى منطقة العجب والانبهار . وقد يستغرق بضع سنوات قبل ان ينفذ الى فهم مبادئ حياة النبات والحيوان ، وتناسلها ، وانتشارها على سطح الارض ، ثم يظل بعد ذلك منبهراً دهشاً لما يراه من تعدد اشكالها التي لا تحصى ، ومن براعة النبات التي تجلّ عن التقدير ، عالما انه اذا مـــا كشفت ضروب جديدة فانها قد تنطوي على خلق علوي جديد ، لم يكن في وسع احد ان يتوقعه . إن تعقيد اللغات البشرية ، وحياة الحيوانات المجهرية ، والاشعاعات التي تملأ الكون ولا تراها عين ، والقدرة على التحوّل الفجائي في الاجسام الحية ، كل هذه قد تدرك او تفهم الى حد ما ولكنها لن تدرك ادراكاً تاماً . وقد كان المفكرون في القرون الوسطى يقولون — وما اصدق ما قالوا — :

جميع الاشياء تنتهي الى ألغاز . اما نحن فليس القصد من وجودنا ان نكتفي بالتشخيص والتقدير ، بل هو ايضاً العجب والاعجاب ، وتوقع ما لا يتوقع . »

العقل لغز

« نعم ان العالم الخارجي – المرئي وغير المرئي – هو في خاتمة المطاف لغز . وكذلك العالم الآخر الذي نعيش فيه – العالم الداخلي ، عالم العقل . وليس بيننا من يعرف ما يحتوي عليه او ما في وسع عقله ان يفعل او ان ينتج .

ان جانباً من نشاط العقل الدائب المعقد ، خفيّ ولن يكشف عنه . ولا نكاد نتبين بعض خطوطه الغامضة ، الا في الفينة بعد الفينة ، في احلام او في اعمال لا غرض لها على ما يبدو . فالكهنة في كراسي الاعتراف ، وعلماء التحليل النفسي الذين يستمعون الى مرضاهم ، والمحامون في مواقف الاستقصاء وسبر اعماق النفوس ، والقضاة الذين يحللون اعمالًا فيها حيلة او عنف ، وعلماء ثقافات السلالات البشرية الذين يفحصون الاساطير ، والنقاد الذين يتغلغلون في القصائد ، هؤلاء جميعاً – ونحن ايضاً – حين يستمعون الى الموسيقى ، لغة الروح بغير الفاظ ، يلمسون شيئاً من ذلك العالم القوي المخيف ، ولكن لن يتاح لنا ان نعرفه معرفة كاملة . فكأنه

يتعمد ان يختفي عنا . ان اتباع فرويد بسّطوا المشكلة احياناً ـ اكثر مما يجوز تبسيطها ـ فقالوا ان النشاط الداخلي للعقل هو فوران مادة منافية للأخلاق جاء عليها الكبت والرفض والمراقبة ، ـ فكأنه هيكل حيّ مقيّد بسلاسل في داخل خزانة. ولكن الصورة الحقيقية أشدّ تعقّداً . ان عقلنا المفكر عاجز عن السيطرة على جانب كبير من حياتنا الخفية او عن مد يد المعونة اليه او عرقلة سيره ، بل هو عاجز عن فهمه . فالغرائز ، والذاكرة ، والاختراع ، والمخيلة ـ هذه وغيرها من وجوه النشاط ، خارجة عن نطاق الوعي الى حدّ كبير . وفي وسع العقل ان يلاحظها في خلال نشاطها ، وان يتدخل في شؤونها ، الحين بعد الحين ، وقد يتأتى له بعد جهد شاق دائب ، ان يؤثر فيها ، ولكن أصولها وقدرتها الكاملة واساليبها تظلّ خارجة عن نطاق قدرته . وقد قال السيد المسيح : « من منكم اذا اهتمّ ، يقدر ان يزيد على قامته ذراعاً واحدة » ، امـــا نحن فلنا ان نسأل انفسنا : افي وسع احد منا ان يتنبأ اليوم بالافكار التي قد تدور في خاطره بعد سنة ، او اسبوع ، او في غد ، او بعد ساعة واحدة ؟

[فنحن جميعاً من اهل الكهف ، والكهف الذي نسكنه هو عقلنا . اما الوعي فهو كالمشعل الصغير ، يتراقص نوره ، ويتوهج ، ولا يسعه حتى في افضل الاحوال ان يهدينا الى

اكثر من خطوط قليلة على اقرب جدران الكهف الينا ، او ان يبين بانعكاس ضوئه ، نهرا يتدفق في غير جلبة او هدير في الجوف تحت اقدامنا ، واذا نحن نفزع الى الوراء قبل ان يغمرنا . واذا ما استكشفنا هذا الكهف وقعنا في كثير من الاحيان على اشكال ذات جمال ، واعمدة بلورية براقة ، او مرصعة بالجواهر ، او حيوانات دقيقة الشيات لينة الخلق تمدّ الينا يد الصداقة ، وقد نقع احياناً على مخلفات زمن سابق ، فنلفي انفسنا امام تمثال بدائي تزينه ازهار ندية عند قاعدته ، او امام اشباح وحوش مصورة وعلى مقربة منها آثار ايد دامية ، وقد نعثر في الحين بعد الحين بركام يتحرك ويدمدم ويطقطق ، ولكننا نشيح بضوئنا عنه ونستحث خطانا . وقد نسير في طريق يرسم في لفه ودورانه صورة معقدة مفصّلة ، مع ان اللهيب الصغير الذي نستضيء به لا يظهرنا الا على خطوط قليلة تلتقي ثم تنحني ثم تغيض في الظلام . وقد تضعف الاشعة احياناً ، منذرة بالخمود والانطفاء ، فنبقى وحدنا في ظلام دامس . ولا بد لنا في رحلة الاستكشاف هذه من ان نُقعي ثلاث مرات على الاقل ، لان سقف الكهف منخفض ، فلا يسعنا ساعتئذ ان نمضي الا اذا حبونا على ركبنا ، فاذا خرجنا من الممر الضيق ألفينا أنفسنا في غار ارحب من الغار الاول ولكنه ادنى الى المهابة والرعب ، ففيه نسمع حفيف اجنحة لا ترى ، فوق رؤوسنا ، وفي جدرانه فتحات لا ينيرها الضوء الذي في يدنا سوى انارة

ضعيفة ، ولكنها تكشف لنا عن عيون [illegible] مستقرة في فجواتها . واشد محنة نعانيها تنزل بنا [illegible] نحاول ان نتكلم ، واذا الجدران المترامية الخفية والسقف جميعاً تشوه كلماتنا فتصبح اصداء قوية رهيبة تتضاءل رويداً رويداً حتى تصير وكأنها همسٌ من وراء الحياة او زمجرة بغيضة ، وبعد ان نقضي سنوات نجوّل في الكهف ، يقع الضياء من مشعلنا على سطح بركة هادئة فننحني فوق السطح الساكن ، ولكننا ننكر الوجه الذي يحدق في عيوننا القلقة الدهشة .

ان النفس مخبوءة عنا . ونحن لا نعرف انفسنا ولا اشقاءنا أو شقيقاتنا ، ولا ازواجنا او اولادنا ، ولا يعرف صديق صديقه .

ولكن اللغز فيه من العظمة قدر ما فيه من الظلام : الكهف معتم كئيب موحش لم يستكشف ، ولكنه يحتوي على كنوز . ففي مخ كل انسان قوة لم تستعمل ، ولن تجد في ملايين الملايين من الناس الذين عاشوا وماتوا ، سوى بضع مئات من الرجال والنساء الذين كان في طوقهم ان يسخّروا بعض تلك القدرة لتغيير العالم . اما البقية فمؤلفة من ناس يؤدون الواجب ، او يؤثرون التراخي ، خيّرين واشراراً ، ينساقون مع المتعة الحسية او ينكرون المتعة ويستنكرونها ، يقتصدون او يبذرون ، ذوي إقدام او ذوي إحجام . اما الذين لا يحصون الا بمئات الالوف وحسب —

او لعلهم بضعة الوف فقط – فهم اصحـــاب العقول التي صنعت عالمنا : العلماء ، ورجال الخطط الحربية والصناعة ، اهل الفنون والريادة والاختراع ، المنظمون والمؤلفون والموسيقيون والفلاسفة والاطباء والمعلمون والمشترعون والساسة ، بضعة آلاف في كل طبقة ، هؤلاء هم اصحاب العقول التي منحت سائر البشر نعماً لا تقدّر ، او انزلوا بهم اذى لا يحدّ . فاليهم يرتد جانب كبير من تاريخ البشر .]

انظر في العالم منفصلًا عن البشر ، ترَهُ اما جامداً لا يحول ، واما انه يتحوّل تحوّلاً بطيئاً وكأنه يتبع ايقاعاً آلياً . فالسيارات تدور حول الشمس ، وهي تبطئ شيئاً فشيئاً في دورانها . اما المد والجزر فيتبعان القمر في زيادته ونقصانه . واما « الطقس » فيبري الصخور ، والبحر يأكل الشواطئ ، والثلج القطبي يزحف ثم يرتدّ . اما الهواء والماء فيزخران بالاحياء – ولكنهما قلما يتغيران ، واذا فعلا ففي ازمنة متطاولة . تنمو الاعشاب السرخسية وتسبح الاسماك وتتذبذب الاحياء المجهرية في عالمنا هذا ، كما كانت تفعل منذ زمن بعيد قبل ان انتصب الانسان ومشى على الارض . امـــا النمال الدؤوبة فتمضي على نهجها الرتيب ، من حفظ النوع وتخليده ِ كما كانت تفعل يوم كانت جبابرة الدينوسور تسيطر على الارض . ولكن الانسان ، في تاريخه المقتضب ، قد غيّر عالمه ونفسه ايضاً ، وصفته الخـــاصة هي احداث

التغيير المقصود بوساطة الفكر ، فهو ازخر ما يكون حياة واصدق ، عندما يفكر .

وليس هناك سوى ثلاثة مذاهب علمانية لتفسير التاريخ : اما الاول فهو ان التاريخ تصنعه جماعات من الناس متعاونة متكاتفة ، واما الثاني فهو ان هناك « قوى » عمياء غير شخصية تحدث التطوّر التاريخي ، واما الثالث فهو ان الافراد الاقوياء هم الذين يعينون وجهته ويسيرون في الطليعة . وليس ثمة ريب في ان كل مذهب من هذه المذاهب هو حقّ الى حدّ ما ، وليس بينها مذهب واحد هو الحقّ كله وما عداه هباء. فالتحول الاقليمي والامراض الوبائية تحمل الناس على الهجرة من مكان الى آخر ، او تهلكهم . ونماذج السلوك الاجتماعي والاقتصادي والديني والفنيّ ، تستكمل على اجيال متعاقبة ، والهجرات الكبيرة تقع وليس لهـا قائد بعينه . ومع ذلك فان طائفة من اعظم وجوه التغيّر وأشدها حيوية قد تمت في عصور التاريخ القريبة منا على ايدي افراد اقوياء . ولم يكونوا جميعهم من اهل الفكر ، بل اندفع بعضهم بانفعالات الحب او الحقد او القسوة او الكبر ، ولكنّ عمل المفكر كان ادوم وابقى اثراً .

ولما كان كل هذا لغزاً غامضاً ، فليس في وسعنا ان نقرر كيف ينجب المفكرون العظام . ولن تجد سوى قواعد قليلة تنطبق على إنجابهم . فهم لا ينبتون كما ينبت الشجر ، ولا

يربّون كما يربى الحيوان المختار ، والناس لا يولدون ذوي فكر او غير ذوي فكر ، بل يصيرون كذلك ، ولعل أضمن طريقة لتنشئة المرء تنشئة تجعلهُ ادنى الى بلادة العقل ، هي ان يكون في جماعة كبيرة جامدة من الناس ، تعمل العمل اليدوي وتعيش على مستوى يكفل حفظ الرمق وحسب ، وعلى غرارها تقريباً ان يولد المرء في اسرة كريمة لها ثروة موروثة ، ومنزلة اجتماعية مضمونة ، وان يبعث به الى مدرسة هادئة دقيقة النظام . فالفلاح الصغير والنبيل الصغير ، كلاهما سجين محبسٍ عقلي ، هو الأخدود في الحقل او المجتمع .

تدريب المفكر

لا ، ليس في وسعنا ان نعرف كيف تنشأ العقول العظيمة ، ويشقّ علينا ان نعرف كيف نستطيع ان نتبينها ونشجعها عندما تنشأ . ولكننا نعرف وسيلتين تغذيانها في خلال نموّها.

اما الاولى فهي ان نضع اصحابها دائماً امام ما يتحداهم ويحفزهم : لنعرض عليهم المشكلات ، ولنعرّضهم للمصاعب ، إن بهم لحاجة الى التفكير ، لنواجههم باشياء يفكرون فيها ، ولنحرص على نقد تفكيرهم في كل مرحلة من مراحله ، ففيهم نزوع الى الاختراع والابتكار ، لنقترح عليهم تجارب يجربونها ، ولنطلب منهم ان يكشفوا عن الخفيّ والمستور .

(واما الثانية فهي ان تعقد صلة الوصل بينهم وبين غيرهم من اصحاب العقول الممتازة) ليس يكفي الفتى الذكي والفتاة الذكية ، ولا يكاد يكفيهما ان يجتمعا بأقرانهما ومعلميهما ووالديهما . بل ينبغي له ولها ان يجتمعا برجال ونساء من ذوي الامتياز الحق الذي لا ينكره منكر ، اي ينبغي لهما ان يتصلا بالخالدين . وقد مات افلاطون ، ذلك الوغد الألمعي المتشائم ، منذ ٢٣٠٠ سنة ولكنه لا يزال يتحدّث ويفكر في كتبه ويحمل الغير على التفكير . ولن تجد طريقة تحفز الشاب الى التفكير في اية مسألة من مسائل الفلسفة — سلوك الانسان ، العمل السياسي ، التحليل المنطقي ، ما وراء الطبيعة ، اصول الجمال — افضل من مطالعة افلاطون ومحاولة الردّ على براهينه ، واستكشاف سفسطائيته ، ومقاومة الاغراء في اساليب اقناعه ، حتى يصير الشابّ تلميذاً له وناقداً في آن . ولن تجد احداً يحسن الاخذ في كتابة الموسيقى الا اذا درس مؤلف باخ ، « الارغن الذي احسن ضبطه » ، وسمفونيات بيتهوفن . والمؤلف الموسيقي الشاب الذي يدرس هذه المؤلفات الموسيقية ، لن يؤلف موسيقى كموسيقى بيتهوفن او باخ ، اذا كان على شيء من الاجادة والاصالة ، بل يؤلف موسيقى ادنى الى الموسيقى التي يتوق في قرارة نفسه الى تأليفها . وقد يصبح احد الرجال دبلوماسيا موفقاً اذا اتبع القواعد المدوّنة ، فيحل كل مشكلة تعرض له ، ولكنه اذا شاء ان يصير سياسياً

بناء فعليه ان يقرأ مكياڤلي وان يتدبر حياة بسمارك ولنكن ودزرائيلي ، فخير طريق مفض الى العظمة هو ان تعاشر العظماء.

[فالتحدي والتجربة من ناحية ، والمشاركة مع العقول الخالدة من ناحية اخرى ، هما الطريقان اللذان يضمنان تنشئة رجال ونساء ذوي ذكاء وفهم .] وهاتان الفرصتان اللتان تمهدان للعظمة ، متاحتان او ينبغي ان تكونا متاحتين في المدارس والكليات والجامعات . وقد يخيل اليك ان تسأل : هل تنشأ المدارس لتنشئ العباقرة ؟ والجواب كلا ، ولكنها لا تقوم لتنشئ الوسط من الناس وحسب ، او لاهمال الموهوب او تخديره . فهي تقوم لتحسن تنشئة الفريقين جميعاً ،] ولعل التبعة الواقعة على كاهل التربية في ان تعطي العقول الممتازة حقها من العناية هي من اعظم تبعاتها ، على ان يذكر المربون أن العقول الممتازة قد تنبثق في اي مكان او زمان وفي اي انسان — حتى الهيكل الغليظ المشوه قد يضمّ بين برديه عقلاً ألمعياً .] ومن اغرب ما قد يقع للمعلم في مدرسة ريفية صغيرة ، يدرّس فيها سنة بعد سنة ، موادَّ منهج لا يتغير ، لأبناء اسر لا تتبدل ، هو ان يكشف ذات يوم بين تلاميذه فتى مهندساً موهوباً ، او كاتباً مسرحياً مطبوعاً . شيء يحيّر ويربك ، وهو صعب ايضاً . صعب على المعلم ان يعرف كيف يشجع دون ان يتعاظم ، ودون ان يساوره شيء يسير من الحسد . ومع ذلك فان تاريخ المعرفة حافل بقصص وقعت

لمعلمين تبينوا مواهب بارزة في تلميذ ما ، واتاحوا له كل ما يحتاج اليه من عون في طريقه الى القمّة — قَصَصٌ يحرك النفس ويشجع على العمل . وفي هذا الباب تدخل قصة الصبي الفلاح الاسباني الذي كان يرسم بالفحم على لوح من الخشب، يوم رآه معلمه، واخذ يدربه ، فكان له يدٌ في خلق (غويا) الفنان . ومن قبيلها قصة التلميذ اللندني الأعجف المرهف الاحساس الذي اتاح له ابن ناظر المدرسة ذات يومٍ فرصة المطالعة الحرة في خزانة ابيه ، فوجد بين الكتب على رفوفها ترجمة تشابمان لهوميروس فأوحت اليه قصيدته المشهورة التي عنوانها « بعد وقوع النظر على ترجمة تشابمان لهوميروس »، هذا هو كيتس . ومن وراء كل رجل عظيم يقوم والد طيب او معلم طيب .

ان التربية في الولايات المتحدة وغيرها من بلاد الغرب مأثرة تبعث على النشوة — هذه المدارس الصحية المشرقة ، وهذه الكليات العديدة ، وهؤلاء الاحداث الذين يستمتعون بما قسم لهم فيها دون ان يجهدوا انفسهم في الدراسة . ولكنَّ فيها ضعفاً في موطن او اكثر ، منها ان التربية قد غدت ميسورة المنال اكثر مما ينبغي ان تكون ، وكأنها تعد شيئاً مُسلَّماً به كالماء العذب ، ولن تجد احداً يتوقع ان يجد فيها حافزاً قوياً او غذاء دسماً ، ولكنها كالماء العذب ، يُطلب لانه لا بد منه ، لحفظ الانسجة ريانة والاشياء نظيفة . واما الثاني

فهو انها قلما تصحب الطالب الى الايام التالية من حياته بعد ان يكتمل نموه . فالاميركي الوسط يؤثر ان يسوق سيارة في جادة مزدحمة ، على ان يقرأ كتاباً او على ان يفكر . والفرنسي الوسط يفضل ان يحتسي زجاجة ثانية من النبيذ على مشاهـــدة مسرحية من مسرحيات راسين . والبريطاني الوسط يختار ان يملأ قسيمة مباراة لكرة القدم على ان يستمع الى موسيقى « انيجما » (اللغز) من تأليف « الجار » . ولست ادري سر هذا . فلا بد ان يكون في التربية خطأ في مكان ما منها . وعسى ان يكون سر هذا ، اننا نتعلق بمحبة الوسط من الناس ، وان التربية انما اتيحت وسائلها لتجعل الناس على مستوى واحد ، وان السعادة هي في المشاركة في جماعة متجانسة ، مزدحمة تدندن دندنة حلوة واحدة ، ولا تمييز بين افرادها ، كالنحل في القفير .

ولا ريب في ان المدارس هي للوسط من الناس ، ولكنها وجدت ايضاً لكي تخدم الممتاز . والذين انشأوا اميركا ليسوا الاوساط من الرجال والنساء وحسب ، بل اسهمت معهم ايضاً فئة من ذوي الاطوار الغريبة والابطال والجبابرة . فهؤلاء يمجدهم ستيفن سبندر حيث يقول :

إنني لا أنفكّ أفكر في اولئك الذين كانوا عظماء حقاً ،

الذين تذكروا منذ كانوا في ارحام امهاتهم تاريخ النفس

في اروقة الضياء، حيث الساعات، شموس

لا تنتهي ولا تكف عن النشيد. اولئك الذين كان مطمحهم الاجمل،

ان تتمكن شفاههم، وقد مستها النار،

من ان تحدّث عن الروح مجلببةً بالنغم من الرأس الى القدم

. . .

ولدوا من الشمس فمضوا مسافة قصيرة الى الشمس،

وتركوا الهواء الحيّ مطبوعاً بطابع نبلهم.

ان حياة كل معلم هي في بعضها وقف على ان تستكشف وتشجع هذه العقول القوية القليلة التي تطبع المستقبل بطابعها، [وسر التربية هو ألَّا ينسى المعلم ابداً ان العظمة خليقة ان تكون كامنة في تلاميذه.]

[ودَيْن في اعناقنا ان نوقّر العقول العظيمة في الماضي والحاضر والمستقبل. ومن بواعث الالهام والغبطة ان نطالع اسماءهم، فأحدها يلقي من ضيائه على الآخر، ويتلقى ضياء من غيره،] فكأنّ المرء يرفع بصره الى النجوم، ثم ينقّله

من الدب الاكبر الى الجبار الى الدبران الى الشعرى الى العيوق – من مجد الى مجد .

واذا فكرنا في دانتي صاحب امجد العقول في القرون الوسطى ، انطلق فكرنا من فوره الى استاذه وصاحبه فرجيل ، فهو الذي هدى خطاه في الجحيم والمطهر حتى ادرك رؤيا حبيبته ، ثم ننتقل من قصيدة دانتي الى صنوهـــا النثري ، كتاب « القمّة » لتوما الاكويني ، ثم نرتد من توما الاكويني الى استاذه ارسطوطاليس . واذا ما قرأنا لفرنسيس بيكون ، فسرعان ما نتذكر كاتباً سبقه وكان احنى منه والطف ، هو مونتاني ، ثم اذا تذكرنا ان بيكون كان مفكراً علمياً ، انصرف ذهننا الى ديكارت ، ومنه الى عقل يمتّ اليه بصلة هو عقـــل ليبنتز ، وكذلك ننتقل من عظمة الى عظمة . فديكارت ونيوتن حاولا ان يفسرا الكون . واذا ما ذكرنا نيوتن لم يكن بدّ من الارتداد الى كپلر وتيخو براهي ، اللذين تقدماه ، والى لاپلاس الذي جاء بعده . واحياناً ترى العقول العظيمة يذكّر بعضها ببعضها الآخر ، لان اصحابها على رغم كونهم غرباء بعضهم عن بعض ، ونطاق احدهم ووسيلته يختلفان عن نطاق الآخر ووسيلته ، فانهم كانوا يرون نواحي متشابهة من الكون . فمن العسير ان تعزف بعض الحان باخ دون ان تذكر وجوه اولئك الشيوخ الحكماء ذوي القسمات المجعدة والعيون الغائرة ، يطلون علينا من ظلال الصور الاخيرة

التي رسمها رمبرانت ، وعسير ايضاً ان تنظر الى الصور الصوفية التي صنعها « دورر » بالخطوط الدقيقة ، دون ان تفكر في فاوست .

فهؤلاء الرجال لم يكونوا – كما يظن بعض المؤرخين من غير ذوي الرويّة – صنائع زمانهم ومكانهم . بل كثيراً ما كانوا شواذّ يهملون عصرهم او يؤلفون طليعة عصر جديد . وقد كانوا على الاغلب عصاميين ، فلما صاروا لعصرهم ألسنة تفصح ومعلمين يعلمون ، كان لهم يدٌ في تكوينه ثم سيطروا عليه. وحسب المرء ان يطالع سيرة مفكر من هؤلاء المفكرين ليتجدد ايمانه بالانسانية ، وشعوره بما عليه من تبعة حيال العالم . ان التنقل الحرّ بين العقول الشامخة في احد العصور العظيمة – كالقرن السابع عشر او العصر الذي انجب شيشرون ولقريطيوس وفرجيل وهوراس وليفيوس ، او القرن التاسع عشر – ليبعث على عجب لا ينقضي لما في عقل الانسان من اغوارٍ لا تسبر ، وتنويع لا يحدّ ، واذا قول الشاعر التراجيدي الاغريقي على الشفاه :

ما اكثر العجائب ! ولكنك لن تجد

بينها عجيبة اعجب من الانسان

الفصل الخامس

مستقبل المعرفة

ان قوى المعرفة هي قوى فذّة ولا يعدلها او يقاس بها شيء ، فما هو مستقبل المعرفة ، والى أية غاية هي خليقة بان تسير بالانسان ؟

ليس للمعرفة مصير واحد ، بل ثمة ثلاث غايات قد تنتهي الى احداها .

الاتساع

اما المصير الاول فهو الذي يرجوه الكثيرون منا ، لا جميع الناس . فقد يتسع نطاق المعرفة وتنتشر رقعتها وتزداد قدرة العقل ويعلو شأن العمل الذي يعمله . واكبر ما يبشر بأننا صائرون الى هذا المستقبل هو ازدياد المعرفة بالقراءة والكتابة في العالم . وفي وسع مؤرخ ان يضع كتاباً جيداً سليم الاركان

في تاريخ الحضارة ويجعل محوره تقدم القراءة والكتابة ونشر الكتب وتوزيعها . ففي الاجيال الاربعة او الخمسة الاخيرة خاصة ، بلغ التقدم في معرفة الكتابة والقراءة مبلغاً من السرعة وسعة النطاق ، حتى ليعجز اكثرنا عن تقديره ، فهو انتصار من انتصارات الروح . وقد كان والدي ، رجلًا يحب الكتب ، ولكنه يذكر انه كان يعرف نسّاجين اسكتلنديين ، قلما اتيح لهم ان يتعلموا في مدرسة ، ولكنهم علّموا انفسهم القراءة بتهجئة الالفاظ في كتاب يضعونه الى جنبهم على النول فيتعلمون وهم ينسجون . وقد عَلّمتُ الادبَ الاغريقي القديم لطلاب كان اجدادهم لا يتكلمون لغة معروفة ، بل كان حديثهم بلهجة اوروپية مجهولة لا يعرفون القراءة بها ، ولا كان ثمة كتب ألفت وطبعت فيها . وقد تمّ مثل هذا التحول في ارجاء كثيرة في الغرب خلال القرن الماضي ، قرن المدارس العامة ، والمكاتب العامة . ونحن نشهد اليوم اتساع رقعته وانتشاره في سائر ارجاء العالم . ومع ذلك فلا تزال الكثرة من البشر اميّة ، ولكنها تدرك اليوم وتعترف بما للكتب من مقام خطير .

وثمة ثلاث نواح من مجهود البشر يحقّ لنا ان نتوقع فيها ، خلال القرن المقبل ، تقدماً عظيماً ينفع البشرية نفعاً اكيداً ، وهذه النواحي هي القراءة والكتابة ، واستعمال الأرض ، والصحة العامة . والناحية التي يمكن ان يتم فيها اعظم التقدم هي حتماً ناحية القراءة والكتابة .

والرجاء معقود بأن يصحب ذلك ازدياد مطرد في دور الكتب في جميع ارجاء الارض ، فلن تجد دار كتب ، شيئاً لا نفع فيه ، واصغر مجموعة من الكتب قد تحتوي على ذخائر لا مثيل لها ، او قد تلهم احد العباقرة . وكل دار كتب هي إثبات لثقة الانسان التي لا تحول ، بأن الذكاء والفهم هما الدرع الواقية من التنكر للعقل ، ومن بطش القوة وعوادي الزمن والموت . وحياة كل بلدة او كنيسة او مدرسة لا تحتوي على مجموعة وافية من الكتب ، هي نصف حياة . والحق ان دور الكتب اليوم قد صارت الزم مما كان كارنيجي او غيره من المحسنين يتصورون ، لانه وقد طغى سيل النداءات المبلبلة الموجهة الى اهتمامنا العابر ، كمقالات المجلّات التي تكتب كتابة سريعة ، والصحف التي تحوي نُتَفاً مبعثرة مهلهلة ، وسيول الكلام التي تنصبُ من اجهزة الاذاعة ولا تنقطع ، صار لا مفر من ان تكون دار الكتب مكانا للراحة والسكينة والانصراف عن شؤون الساعة ، الى التفكير .

وليس ثمّة ريب في ان العلم المطبق واساليب الفنون الصناعية التي زادت كفايتنا ووسائل راحتنا في القرن الماضي ، ستمضي في طريقها تعزز ذكاءنا بانتاج وسائل ميكانيكية جديدة . وقد يبدو من المفارقات ان يكون عمل المفكرين دائماً عملًا شاقًا . ولكنه كان اشقّ كثيراً في الفترة الواقعة

بين سنة ١٥٥٤ و ١٧٥٤ ، ان يصير المرء عالماً ، بما هي الحال في سنة ١٩٥٤ ، لانه كان حتماً على العالِم يومئذٍ ان ينفق جانباً كبيراً من وقته في التمهيد لعمله الاصيل ، واعداد تفصيلاته . فقد كان لزاماً عليه ان يجمع كتب المراجع التي يحتاج اليها وان ينسخ كل شيء بيده ، وان يصنع الفهارس وان يبحث عن الحقائق المتفرقة ، غير المبوبة ، وان يبني بيديه ادوات البحث ، وان يعتمد اكثر مما يجوز على الذاكرة . حتى الضوء الذي كان اسلافنا يستعينون به في القراءة كان ضعيفاً . ولكننا نجد اليوم ان كل فرع من فروع المعرفة ، وجميع نواحي البحث والاستطلاع بوجه عام ، صار لها دور كتب خاصة بالمراجع ، وهذه المراجع هي كتب ، طبعها واضح ، واستعمالها ميسّر ، وفهارسها وافية . وليس ثمة ريب في ان الآلة الكاتبة ، والفلم الدقيق ، هما من النعم التي اتيحت لطلاب العلم ، والتقدم مطَّرِدٌ في ابتكار وسائل جديدة تعين على العلم والبحث . ومنذ عشر سنوات كتب فانيفار بوش مقالاً ممتازاً وصف فيه الطالب في زمن مقبل ، وهو مكبٌّ على دراسته وامامه نضَدٌ ، — كغيره من الطلاب فيما سبق — ولكنه نضَدٌ يحتوي على مكتبة كاملة . ففي سطحه ألواح من مادة شفيفة يضيئها جهاز مركب تحتها ، فيستعملها كأنها ستار في دار عرض للصور المتحركة ، ويعرض عليها صفحة مطبوعة (او مخطوطة) اثر صفحة ، وكل منها مشرقة واضحة تفوق الصفحة المطبوعة في كتابٍ ، اشراقاً

ووضوحاً ، وفي ادراج النضد تختزن على لفائف من الفلم الدقيق ، ألوف من الكتب والسجلات والوثائق مصورة تصويراً مصغراً على الفلم ، ولها فهارس تدل عليها ، فما على الطالب الا ان يضغط زرّا ، فاذا الكتاب الذي يريده او الوثيقة التي يطلبها قد ظهرت على اللوح امام عينيه . ويحتوي النضد ايضاً على وسائل تمكنه اذا ضغط زرّا ، من ان يسجل على الفلم الدقيق ما يريد تسجيله . وهذه الوسائل لا تزال بعيدة عن منال اكثر العلماء ، لانهم فقراء ، ولكنها ادنى الينا ، مما كان الكتاب المطبوع الى المخطوطة في القرون الوسطى . ثم هناك الخبراء في العلم الكهيربي ، فقد جعلوا يصنعون ادوات اعجب تساعد على البحث ، كالآلة الحاسبة ، التي يبلغ حجمها حجم غرفة ، والتي تستطيع ان تغني عن مئات من الرياضيين ، او الآلة التي تتذكر ولا يزيد حجمها عن حجم جهاز راديو متوسط ، ففي قدرتها ان تتصفح كلّ كلمة في مكتبة مؤلفة من مئة مجلد ، وان تختزنها وتعيدها متى طلب ذلك منها . واعجب هذه الآلات آلة تستطيع ان تختزن ملايين لا تحصى من الحقائق خلال سبعين سنة ، وهي تسيطر على آلتين مصوّرتين ، وجهازين يسجلان الصوت ، وعشر ادوات عجيبة في خفة حركتها وحسن ملاءمتها ، وهذه الآلة هي المخ البشري . ولا تنسينّ ان نشوءه قد استغرق مئات الالوف من السنين ، فالادوات الجديدة التي تساعده على العمل تجعل عمله أيسر .

ولنا ايضاً ان نتطلع الى تنظيم الدراسات العلمية تنظيماً عالميَّ النطاق. وتاريخ علم الفلك وحده، يبين مدى التقدم العظيم الذي يمكن تحقيقه متى اتفق رجال العلم في جميع البلدان على ان يتبادلوا المعرفة، وان يعالجوا مشكلاتهم بروح التعاون الصادق. ولكن معظم الجمعيات القومية والاقليمية في معظم ميادين المعرفة – التي انشئت حتى تتيح لأعضائها تبادل المعرفة والمشاركة في المكتشفات وتشجيع بعضهم بعضاً، لا تعود الى اكثر من ثلاثة اجيال او اربعة. ومع ذلك فما حققته حرّي بالاعجاب. ان العمل الذي يقوم به مجمع تقدم العلوم الاميركي، والجمعية الطبية البريطانية، وجمعية غيّوم بوديه، وجميعات كثيرة عداها، قد سبقت فيما حققته كل رجاء عقده عليها مؤسسوها. وليس ثمة ريب في ان العوامل التي تثبط من همة العالم كثيرة. فالمكافأة التي ينالها قليلة، وكثير من عمله يتم في عزلة عن غيره، وبعد ان يُنى العالم بالخيبة مرة بعد مرة يصير في عزلته ميّالاً الى التشاؤم. حتى التعليم نفسه ليس فيه من القوة الحافزة ما يكفي في بعض الاحيان، لانه لا بدّ فيه، من تعليم التلاميذ بسائط الموضوع، على حين ترى ان البحث العلمي الذي بلغ درجة من الرفعة، هو فوق مداركهم. واما بقية الناس فيلوح انها تعجب بالمشعوذين والدجالين وتجزيهم احسن جزاء، فلا عجب ان ترى العالِم يبطئ السير، او يفكر في ان ينصرف عن بحثه. ولكنه اذا ما حضر الاجتماعات التي يعقدها جماعة من العلماء، يشاركونه

العناية فيما يستأثر بعنايته ، فإنه يسترد ثقته بالنفس وبأن ما يصنعه له شأنه ، ويتذكر اسماء العظماء في عهود سابقة ، ويجتمع بالعلماء الشبان الذين يعقد عليهم الرجاء في ترقية علمهم في المستقبل . وكل زيارة لمؤتمر دولي يعقده العلماء هي اشد حفزاً للمواهب ، فهي تسمو على المنافسة الخاصة والمسابقة المحلية . نعم انها تحرّك احياناً العاطفة الوطنية ، ولكن الارشاد الحكيم واطراد حكم العادة يتغلبان عليه . اما المفكر الذي لم يعنَ من قبل بتحديد مبادئه لان تعليمه كان منحصراً داخل حدوده الضيقة ، واما الجماعة التي كانت تدفع الى التعاون بقوة الغريزة ، فتراهم يهتمون جميعاً في مؤتمر دولي بتقويم اهدافهم واساليبهم ، حتى يتاح لجميع الاعضاء (ولهم انفسهم) ان يستوضحوها . ان الاطلاع على تجارب نشأت من بواعث محلية او وطنية ، وفتور بعضهم حيال آراء معينة ، والشك في فروض تطرح للبحث في المناقشة ، ثم مراجعة جميع مداخل البحث المقترحة لموضوع ما ، كل ذلك يعين العالِم على التغلب على شعور العزلة والانفراد والضعف ، ويقنعه بأنه علاوة على كونه العالِمَ فلاناً ، في هذه البلدة او تلك ، هو ايضاً أداة لنشاط إنساني وعلوي — عقل البشر .

وقد كانت المؤتمرات العلمية الدولية ، حتى عهد قريب ، قليلة ومتفرقة ، وكانت الهيئات التي تدعو اليها وتشرف عليها ، غير راسية البنيان ، وفي السنوات الباهرة الحافلة بالرجاء

والسعادة ، في مطلع القرن العشرين بدأت تتأسس جمعيات عالمية للتعاون الفكري ، ولكن الحرب العالمية الاولى مزّقت اوصالها . اما الحرب العالمية الثانية فقد شجّعت على المضيّ في انشائها مرة اخرى . فمنذ سنة ١٩٤٥ عقدت مؤتمرات دولية كثيرة كبيرة الفائدة ، وعددها يزداد ازدياداً مطرداً كل سنة ، كمثل مواسم الموسيقى ، والافلام ، ومؤتمرات المؤرخين ، وخبراء الطعام ، وعلماء الاوراق المخطوطة ، والاحراج . ومنظمة الامم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اونسكو) تتوخى في طليعة الاغراض التي تتوخاها ، ان تحفز الهمة الى عقد هذه المؤتمرات وتنظيمها ، فالاونسكو هي خلية جديدة في العقل العالمي .

وقد كان نشر الأبحاث حتى الآن مقصوراً على المجلات الوطنية مثل « كليو » و « تقدم الهندسة الكيميائية » و « المجلة الاسبانية لتحدّر اللغات » و «مجلة الكيميا التحليلية » و «اللانست» وغيرها . ومن المشاق التي كان كل عالم يعانيها مشقة الاطلاع على المقالات يكتبها زملاء له ، ثم قراءتها مطبوعة في لغات شتى . وانك لتجد اليوم بضع مجلات تنشر فيها مختصرات المعرفة ، على نطاق دولي ، وبضع مجـلات عالمية كمثل مجلة « اراسموس » التي تصدر في سويسرا ويحررها مجلس تحرير مؤلف من علماء قارتين . ولكن عددها غير كاف . وهذا مجال ممتاز لعمل احدى المؤسسات الغنية ، ففي وسعها ان تنشىء سلسلة من المجلات الربعية تختص بأهم ميادين المعرفة ، وتتلقى المقالات للنشر فيها من جميع انحـاء العـالم ، وتنشر باللغات

الثلاث او الاربع التي تعد اللغات الثقافية الرئيسية . او لعلها تهب اونسكو مبلغاً كافياً من المال لتقوم هي على إصدار هذه المجلات عسى ان تمكنها الاشتراكات التي تتلقاها من دور الكتب في انحاء العالم من ان تنهض بنفقاتها فيما بعد.

اما الطلاب الشبان فقد انشئت لهم جمعيات تتيح لهم ان يمضوا فترة من مرحلة دراستهم الجامعية ، بين سنة ونصف سنة ، في بلاد غير بلادهم . وقد شرعت اونسكو في الاشراف على مثل هذا العمل . ويذهب بعض المثاليين الى ان تبادل الطلاب على هذا الوجه من شأنه ان يضعف النزوع الى الحرب في المستقبل . وقد يشكّ في ذلك كلُّ من يدرك القوة العظيمة التي تمارسها الحكومات الوطنية والبواعث التي لا يقرها العقل ، وكيف تفضي الى معظم الحروب . ولكن هذا التبادل يعين على الاقل ، اولئك الذين يبقون احياء — بعد حرب ما — على ان يلمّوا أطراف العالم المتهدم ويشرعوا في بناء الوحدة العالمية .

هذا هو مستقبل المعرفة الذي يعلق به رجاء كثيرين منا : ان يتسع نطاقها في جميع ارجاء الارض . غير انّ هناك طريقين آخرين قد تسلكهما المعرفة في مستقبلها .

الانتحار

احدهما هو ان يقدم العقل البشري على الانتحار . ان الكثرة الغالبة من الناس تجلّ المعرفة ، ولكن ذلك لا يعني

ضرورة انهم يحبونها . وقد كان سويفت المتشائم يقول : ان قدرة الناس على التفكير هي كمثل قدرتهم على الطيران . ولنفرض ان مستوى الحيـــاة مضى يرتفع في جميع ارجاء الارض ، كما تمّ له في القرن الماضي ، وان عدد السكان ازداد ازدياداً مطرداً ، وان ساعات العمل قد قلّت وساعات الراحة والفراغ قد زادت ، وان ما يقلق الناس قد خفّ ، وان فرص المتعة قد كثرت كثرة عظيمة – تُرى ماذا يؤثر الناس يومئذ ؟ أيفضلون المعرفة على المسكرات ؟ أيأخذون الفن والموسيقى والكتب ، ويدعون الميسر وسباقات الخيل ؟

يشقّ على المرء أن يقطع برأي ؛ فالناس ، بين رجـال ونساء في جميع اقطار الارض ، لا يكادون يحرزون قليلاً من مـال وفراغ ، وشيئاً يرفعهم فوق ضغط الحاجة الملحة الى الطعام خلال اسبوعهم المقبل ، ومخاوف السنة التالية ، حتى تراهم قد صاروا الى سخف وقرف فيما يؤثرونه من ألوان المتعة . وسواء أحسبت المال شيئاً يمثل عملاً اضافياً ، (تجنيه في بضع ساعات) ، او مادة (كالنفط او غيره من المعادن المستخرجة من جوف الارض ، او نباتات وحيوانات تنمو على سطحها او قدرة مولّدة من ألوان الطاقة المختلفة) فانه مما يروّع النفس ان ترى ألوف الملايين من ساعات العمل ومقادير لا تحصى من المواد تبدّد وتبذّر كل يوم في جميع العالم ، على المتعة السخيفة . وليس في لون واحد منها ما يزيد على متعة يوم وحسب ، ومعظمها لا يؤتي حتى هذا ، وكلها قائمة على

يحتجّون احتجاجاً عنيفاً لا يقاوم على ما مارسه الجنود ذوو الخوذ ، والمعذبون الغلاظ من استبداد لا يطاق . وهذا كلام سخيف. فالمسيحيون الاول كانوا لا ينفكون يبدئون ويعيدون بأن الحياة من حولهم بلغت من حسن الحال مبلغاً فائقاً ، وان كل انسان كان يستمتع بالملذات ، وان كل شهوة كانت خليقة ان تُحقَّق ، وان هناك شهوات جديدة تخلق كل يوم . فالثروة والملذة وانتفاء التفكير ، كانت قوام العالم الذي اراد المسيحيون ان يصلحوه ، او ان يهجروه يأساً منه. ولكن اتيح لهم فيما بعد ان يحملوه على اعتناق دينهم ، في الفترة التي كانت اركانه تتداعى وتنهار من حولهم ، ثم تمكنوا، كما نعلم ، من ان يصونوا كثيراً من خير ما فيه ، كالكتب وافكار الذين كانوا يفكرون ويؤلفون ، على حين كان غيرهم من حولهم ينفق الحياة والثروة على الغواني والخمر والوان السباق .

واذن فهذا خليق ان يقع في حضارتنا مرة اخرى . وثمة فريق من اهل الرأي يجد انه واقع الآن في بلاد كثيرة وان كان لا يشمل العالم الغربي كله ، ولا سطح الارض قاطبة . وهم يؤمنون بأن السعي وراء المال واللذة العابرة قد بدأ يفتك بقوى الروح الاخرى ، ويفسد المجتمع ، ويظن اليوت (الشاعر) أنه متى مضينا في طريق كل حيّ ، فان الرياح ستهبّ فوق أطلال بيوتنا ولسانها يقول :

هنا عاش قوم كرام لا يؤمنون بالله،

وأثرهم الوحيد الباقي هو طريق معبّد « بالاسفلت » ،

وألف كرة من كرات «الجولف».

اما روبنسون جفرز (الشاعر) فيعتقد ان الاموال والشهوات قد خنقت فينا خلائق البطولة، وصفاء النفس، والنبل، وهي الخلائق التي أنشأت الجمهورية الاميركية وظلت سندها خلال سنين كثيرة. وثمّة غيرهم يرون مثل هذا في أوطانهم، في بريطانيا واستراليا والبرازيل وفرنسا وغيرها.

بل هناك ما هو شرّ من هذا. إنك تذكر ولا ريب ما صنعه اليابانيون يوم غزوا الصين منذ عشرين سنة، وكيف عُنوا عناية خاصة بتجارة الافيون، فجعلوها شرعية، وشجّعوها في جميع المناطق المحتلة، ويسّروا على الناس التابعين لهم، ان يصبحوا من مدمنيها. واتخذ الالمان «الفودكا» وسيلة كهذه الوسيلة في بولندة. اما ماشادو الحاكم بأمره في كوبا، فكان خلال حكمه، يعلن عن عرض افلام خليعة في مسارح هافانا، اذا ما توقعت شرطته السرية ثورة او احتجاجاً او صيحة إرادة مستقلة، وانما كان يفعل ذلك ليصرف عقول الناس عمّا يعنيها الى اشياء اخرى. فالمخدرات سلاح.

وإذن فمن الممكن ان تُفسِد اكثرية شعب ما، او ربما منطقة كاملة، بأن تتيح لها المخدرات، وتوفر لها توفيراً لا ينقطع، ملذّات حقيرة غرضها إفساد الاخلاق وتبليد العقل. وقد يكون في الوسع ان تضعف القوة الادبية في ملايين من الناس بجعل الحياة ميسّرة الاسباب، فينسوا ان يستعملوا

عقولهم . ان اباطرة الرومان قلما كانوا في حاجة الى شرطة سرية لانهم كانوا يوفرون لاهل روما وجبات طعام بالمجان وهدايا متعاقبة من المال . وقد اتيح لاهل روما في سنة واحدة ان يشهدوا خلال مئة وخمسين يوماً من ايام السنة حفلات عرض الالعاب الكبيرة من امثال الملاكمة (ولكن بالسيوف لا بالقفافيز) والمهرجانات الضخمة وسباقات المركبات تجرها الجياد . افيستطيع شعب حديث اليوم ان يقاوم اغراء عرض رائع ، وتوزيع اجهزة تلفزة بالمجان ، وتيسير الميسر بجعله منظماً وشرعياً ، وترخيص المشروبات الروحية ، وحضور حفلات لعب الكرة (على انواعها) والملاكمة والمصارعة ومباريات الدراجات النارية ، وعرض الجميلات في ملابس السباحة ، وسباق الجياد ، والافلام ، وكل ذلك بغير ثمن ، سبعة ايام في كل اسبوع ؟ وثمّة قول سياسي مخيف مؤداه ان الكثرة هي دائماً خادمة القلة . والكثرة غالباً ما تُقدَع عن طريق الاقطاعية او بعض النظم بين سياسية واجتماعية ، ولكن يتمكن احياناً بعض المستهترين من ان يسيطروا على الكثرة بتوفير المخدرات لها ، او بمنعها من مطالعة الكتب الجيدة ، او التفكير تفكيراً مبتكراً وبذلك ينتهي بهم المطاف الى تغيير الكثرة وجعلها مجموعة من المخبولين عن طريق المتعة التي توفر لهم . وهذا تماماً هو ما قصد اليه بوب (الشاعر) في قصيدته الساخرة اذ جعل ربة السخف تتثاءب تثاؤباً رائعاً وتقول :

الفن ، بعد ان يذهب الفن ويرين الاليل .

يخجل الدين، وتسدل الستر على نيرانه القدسية،
وتخمد روح الاخلاق، غير دارية،
فلا شعلة عامة، ولا خاصة، تقدم على التأجج
وليس ثمة شرارة انسانية، ولا لمحة علوية،
واذا نحن امام مُلْك مخوف — هو الخواء. عاد الخواء!
فمات الضياء امام كلمتك العقيم.
إن يدك ايها الفوضوي العظيم، تترك الستار ينسدل،
واذا الظلام الكوني يدفن كل شيء تحته.

واذن فهناك مصير ثان للمعرفة في مستقبلها. فقد تخنق المعرفة، عن قصد، بيد فئة مسيطرة، او عن غير قصد بأيدينا نحن. وقد ينحطّ الفن فيصير زينة وتسلية، وقد تحلّ الحوافز المصطنعة محل المجهود الروحي، وقد يهجر الناس الفكر تاركينه لفئة قليلة من «الاخصائيين» و«الخبراء»، وقد يتاح لكل امرىء ان يعيش معيشة متعة، ويومئذ يصبح المجتمع وكأنه احد تلك المجتمعات الغريبة التي سبقت التاريخ المدوّن، والتي في وسعنا ان نتعرف صورتها من بقاياها. فقد كان الناس يعيشون على سواحل البحر، يلتقطون منه محاره ويأكلونه. وكان المحار كثيراً، ولم يكن للقوم أعداء سوى الشتاء وهيجان البحر. كانوا يعيشون سنة بعد سنة، وجيلاً بعد جيل، بطونهم ملأى، وعقولهم فارغة، وكل ما نعرفه عنهم اليوم ان هناك أكواماً ضخمة يبلغ ارتفاعها مئات من الاقدام، وهي مؤلفة مما نبذوه من اصداف المحار وحسب.

اما المصير الثالث فهو اللجوء العمد الى القوة للسيطرة على الفكر البشري والحد من نشاطه. وهذا ايضاً قد وقع غير مرة في التاريخ. وهو واقع الآن. وغرض الذين يحاولون ان يسيطروا على الفكر هو واحد لا يتغير، وجميعهم يتوسلون بمبدإ واحد، فهم يجدون تفسيراً فرداً للعالم، او ينشئون نظاماً واحداً للفكر والعمل، من شأنه – في ظنهم – ان يشمل كل شيء، ثم يسعون الى فرضه على جميع الذين يفكرون.

والنقاد الذين يتناولون بالبحث فرض عقيدة من العقائد يذهبون في الاغلب الى ان كل انسان سويّ يكره ذلك الفرض، وان تيارات الفكر الرئيسية في التاريخ تخالفه، وان فئة قليلة من الاسياد الماكرين يحاولون ان يحققوه بالقوة. وهذا لون من التخيّل تمليه الرغبة، ولا يعد تحليلاً مجرداً. ومهما تبلغ العقيدة التي يحاولون فرضها من التهافت، اذا نظرت اليها من الخارج، او من مشارف التاريخ، ففي الوسع جعلها مقبولة عند اوساط الناس، بوساطة عوامل كثيرة تغري الناس بها وتجذبهم اليها. واوضح هذه العوامل التي تجذب الناس اليها، هو شعور الغبطة بأن المرء عضو في جماعة يشترك افرادها في جميع معتقداتها، وانها جماعة تفوق الجماعات الاخرى، ويغلب ان تصف نفسها بأنها الجماعة «المختارة» او «الحزب الواحد» او «شعب الله» او حتى «ظلّ الله». ويعدل ذلك قدرةً على جذب الناس اليها بدعة الزعيم، او

الشخصية الملهمة ذات النفوذ الغلّاب ، التي تجمع بين الوداعة والقدرة ، والاقناع والسلطان ــ سمّها ما تشاء . ثم ان هذه النظم ترتكز على وحي سلسلة من الاقوال او الفروض لا يداخلها الشك]. فالشيوعيون مثلًا يعتقدون ان التطور التاريخي في المستقبل صائر صيرورة لا تحول ، وفقاً لنظام اخترعه هيجل وعدّله ماركس . وجماعة المورمون تعتقد ان جوزيف سميث من بالميرا في ولاية نيويورك ، قد تراءى له مَلَك ، واظهره على مجموعة من الالواح الذهبية تفسر له ان سكان اميركا قبل كولمبوس قد تحدّروا من اليهود ، وان سميث قرأ الالواح مستعيناً بمنظار من ذهب ، فاستحالت الكتابة العبرية الى كتابة انكليزية. وهذه المعتقدات لا يمكن النظر فيها على انها محتملة ، وهل يمكن اثبات صحتها او فسادها، فأصحابها يقبلونها ويسلّمون بها ، ولا تختلف في صحتها عندهم عن القول بأن حاصل الجمع بين ٢ و ٢ هو اربعة .[والانسان الوسط يلقى راحة وطمأنينة اذا ما ارسى تفكيره على اساس ثابت كهذا الاساس . واخيراً نجد ان من المغريات بهذه النظم كون اصحابها يزعمون لها كمالاً وشمولاً تامين ، فهي في نظرهم تحتوي على كل شيء . هنا الجواب على كل سؤال يتعلق بمشكلات الحياة ، مختصراً كأنه حبة من عقار ، وليس في غيرها جواب . والناس منذ ان صاروا بشراً ، لازمتهم الحيرة ، فمن مصادر سعادتهم ان يجدوا مذهباً يكفيهم مؤونة الحيرة ويجيب عن كل سؤال عن كيان البشر ، يلحّ عليهم .[

وانت تجد الكثرة من الناس ، في جميع ارجاء الارض ، يقبلون مذهباً او آخر من هذه المذاهب المنكفئة على ذاتها ،

فاذا ما بدا لناقد ان يشك فيها ، كرهوه ، وهم يفعلون ذلك ، لا لانهم يظنونه مهلهل التفكير ضعيف المنطق ، بل لانه يأبى ان يصدق الوحي الذي يصدقونه هم ، ويدنس طهر زعيمهم ، ويتهجم على الجماعة التي ينتمون اليها . ويغلب عليهم انهم يأبون ان يناقشوه ، فيدعون ذلك للمدربين منهم على الجدل. اما هم ، فيؤثرون ان يفعلوا ما فعلهُ الاغريق الاسيويون يوم بُلـّغت رسالة القديس بولس الى افسس ، فقد احتشدوا وظلوا يصيحون صيحة واحدة خلال ساعتين كاملتين ، « عظيمة هي ديانا يا اهل افسس » ، او تراهم يصنعون ما صنعه اليهود يوم كان بولس يبشر غير اليهود فيصيحون : « اقصوا هذا الرجل عن الارض » .

فمن الميسور ، إذن — وقد حدث ذلك غير مرة ، تعبيراً عن ارادة الكثرة — ان يُكبَت كل نقد وشك في المذاهب الراسخة ، وان يعد النقاد هراطقة ، والهراطقة مجرمين قد حكم عليهم بالاعدام. وقد عاش اكثر الناس خلال جانب كبير من تاريخ الحضارة ، مستمسكين بهذه المذاهب ، موافقين على القضاء على الهراطقة . واذن فمن الممكن الذي لا يجوز إغفاله ، ان يفرغ الفكر البشري ، خلال القرن المقبل او نحوه ، في قالب مذهب او آخر من المذاهب الجديدة ، بكل ما يلازمها ، من السلطان المستمد من العلاء والتماسك الجماعي ، والرضا العاطفي . ولا يستبعد ان ينتهي عصرنا المتصف بالمغامرة ، والاضطراب ، والثورة ، الى عهد يغلب عليه الاتـّباع الجامد . ونحن نشهد اليوم رجالاً من اهل الفكر ، في بلاد كثيرة ، يؤثرون الاتباع ، اما رهبة واما رغبة منهم في ان

يتجنبوا بديل الاتباع الوحيد – في نظرهم – وهو الفوضى . ومنذ عهد قريب صدر كتاب « العقل السجين » ، وضعه شاعر بولندي اخضع عقله لضغط الاتباع الذي يسود وطنه اليوم ، وهو يصف فيه وصفاً حياً ما ينزل بسكان ذلك السجن الجديد من استهتار وقنوط وانهيار كالجنون . ولكن لا تكاد تنقضي بضعة اجيال حتى يلين الناس رويداً رويداً ، بعد ان يتعلموا في مدارس وكليات اقيمت نظمها على الاتباع ، وبعد ان يقرأوا ويكتبوا كتباً لا تنحرف عن قواعده ، ولا يقرأون او يكتبون غيرها ، وبعد ان يتلقوا التحذير من مخاطر الانحراف ، وبعد ان يألفوا راحة القبول والانسجام . فيومئذ خليق ان تجد اكثر الناس ذكاء قد مالوا الى الاستقرار ، زمنا ما على الاقل ، كالحيوانات التي تروّض في احد معامل الابحاث ، على التسليم بوجود حواجز غير مرئية هي جدران الزجاج واسلاك الكهرباء في اقفاصها ، فتتعلم ذلك وتألفه بعد ان كانت ترتدّ عنها مذعورة منها . وكذلك الناس ، يتعلمون ان يرتدوا عن حرية الفكر كأنها اجهاد لا يطاق ولا يتصور ، ويستمتعون بالعمل المألوف الاليف الذي يحل مشكلاتهم في « عالمهم الشجاع الجديد » – إنهُ عالم اصغر واحقر ولكنه اسلم عاقبة واحكم ترتيباً من الكون العظيم الذي لا يدرك كنهه .

الجزء الثاني

حدود المعرفة

الفصل الاول

صوت العاصفة

جلسوا يخيم عليهم الصمت ، ثلاثة اصدقاء مع صديق لهم . وهو رجل يطيل التفكير ، ويخاف الله ، وقد كان فيما مضى ذا شهرة وثروة ، ثم فاجأته النكبات فنزلت به تترى ، كالقنابل الهابطة من صدر الظلام ، فحطمت حياته . وقد ذُبح اولاده وتلاشت ثروته ، وما كاد يشكل ويفتقر ، حتى حلّ به مرض كريه ، وصار لا رجاء له ولا شيء يتطلع اليه سوى الموت . فالمرض يعذبه ولا يقضي عليه ، وحياته كلها ، وكل ما صنعه فيها ، وكل ما استأثر بفكره ، أضحى لا معنى له ولا قيمة . ومع ان اصدقاءه اتوا ليؤاسوه في بؤسه ، فليس في وسعه ان يراهم او ان يتحدثوا معهُ .

وبعد أيام وليال ، تراه يفتح فمه المطبق منذ زمن طويل ، ويتكلم . فهو يلعن اليوم الذي ولد فيه ، ويودّ لو انه لم

يستنشق نسمة الحياة الاولى ، لان وجوده ، اما فقد معناه واما هو قاس مرير لا يطاق . والحياة الخالية من المعنى ليست جديرة بما تقتضيه الحياة من كدح ودأب ، اما الحياة القاسية فانما هي شرك نصبه ابليس علوي .

سمعه اصدقاؤه فريعوا ، فقد جاؤا ليؤاسوه ويساعدوه على التوبة عن آثامه ، لا ليستمعوا اليه يندد بالكون . وليس يسعهم ان يصدقوا انه ناقم على الحياة كلها ، لان ذلك هو التجديف على الله ، ولا هم يوافقونه على ان الحياة خلو من المعنى ، فيقولون له انه ارتكب إثماً ولا ريب ، فهو اذا آثم وان ذلك سبب عذابه .

كلا ، فهو ينكر ما يقولون ، فقد عاش حياة فيها من البر والصلاح اقصى ما يستطيعهُ البشر ، والخراب الذي نكب به لا يمكن ان يكون قصاصاً عادلاً . ولا يجوز ان يحكم على احد قد بذل غاية ما في الوسع ، واذن فظلم العالم لا يقبله عقل ولا منطق ، وعدل الله ليس عدلًا على الاطلاق ، فيأبى اصدقاؤه مروعين ان يسلموا بما يقول ، ثم يبدئ ويعيد ، ضارباً باحتجاجهم عرض الحائط ، ويطلب منهم ان يذكروا له سبباً لما حلّ به . اما هو فلا يرى سبباً على الاطلاق ، واما هم فلا يستطيعون ان يذكروا له سبباً مقبولاً لديه .

وبعد اخذ وردّ كلاهما طويل قويّ . وجدل عنيف في هذا الموضوع الذي يمزق النفس ألماً ، اخلد الرجل المبتلى

واصدقاؤه الى السكون ، ثم تكلم احدهم [illegible] سكن صوته ، فالكلام البشري لا يجدي ، وال[illegible] عاجز في هذا الخواء .

واذا الصوت الذي جلجل في الارض قبل ان يخلق البشر ، يملأ الفضاء فوق رؤوسهم : هذا صوت عاصفة عاتية ، وهو ابلغ تعبيراً عن الكون من اي صوت بشري . سمعه الرجل المعذّب ، فكأن الله عزّ وجلّ يخاطبه فيه . ولم تكن الكلمات التي سمعها كلمات تبعث على الطمأنينة ، او وعوداً كريمة ، بل كانت سلسلة قاهرة من الاسئلة التي تتحدى الجواب ، فتوالت عليه مدمدمة في لعلعات الرعد ، تفصل بينها رؤى باهرة تسفر عنها ومضات برق خاطف . وكأن الاسئلة جعلت تتعاظم حتى صارت اعلاناً للقوة والعجب والمجد ، والاعلان يحدّث بأن الكون ليس خيّراً او شريراً ، ولا هو عادل او ظالم ، فهذه الالفاظ حقيرة . الكون لغز ! وكما تنطوي الغمامة على قوة ، فالكون ايضاً يحتوي على عظمة ومجد . فينبغي للانسان ان يسأل ، فهذه طبيعته ، وينبغي للانسان أن يؤمن بان الله خير ، وإنْ تساءل كيف يكون ذلك؟ اما واجبه الأعلى ، قبل ان يسأل او ان يؤمن ، فهو ان يستشعر المهابة والخشوع . الانسان صغير وكون الله عظيم . الانسان محدود في الزمان والمكان وكون الله لا حد له ولا نهاية . يستطيع الانسان ان يعرف اشياء قليلة ، وأن يلحف في

السؤال ، فالكون حافل بأشياء لن يتاح له ان يعرفها ، وفيه من الاشياء الدقيقة المعقدة والباهرة ، ما لا يستطيع ان يعرفه او يدخله في نطاق خبرته . فالكوكب النائي ، والطائر الجارح القوي ، يخضعان لنواميس لم يضعها الانسان ، ولا في وسعه ان يسيطر عليها ، ولن يدخل في طاقته ان يفهمها سوى فهم غامض .

ويجلجل الصوت مرة بعد مرة ، فكأن هزيم الرعـــد موسيقى تقول :

أفي وسعك ان تقيد ما للثريا من آثار حلوة ،
أو ان تفكّ اواصر الجبار ؟
أفي وسعك ان تجيء بربّ الخصب في موسمه
أو ان ترشد الرامي مع ابنائه ؟
أيطير الصقر بحكمتك
ويبسط جناحيه الى الجنوب ؟
أتحلق العقاب بأمرك
وتبني عشها في الاعالي ؟

واذ تنطلق دمدمة الصوت ماضية الى رحاب الفضاء ، يحني الرجل المصاب رأسه ، من عجب وخضوع لا من الم ،

فحكمة الكون من وراء المعرفة البشرية ، وعلى ان الفكر شيء لا غنى للحياة عنه ، فلن يكون في وسعه ان يبلغ أقصى الاعماق . هناك البصيرة وشعور المهابة والخشوع:

« تكلمت فقلت اني لا ادرك

فثمة أشياء فوق قدرتي ، لم اعرفها ،

لقد سمعت عنك بأذني التي تسمع ،

اما الآن فعيني تراك » .

وكذلك ينتهي سفر ايوب وهو من اعظم كتب التخيل الشعري الديني ، بشعور الدهشة والاعتراف بضعف الانسان وقصوره . ولا يعلم احد من كتب ذلك السفر . بل يلوح ان فئة من الكتاب اشتغلت به ، ومن البيّن ان عبقريّين وضعا قسميه الرئيسيين ، احدهما ألّف البيان الذي يعلن العجز عن حل مشكلة الالم ، وتذمر الانسان من الله ، عزّ وجلّ ، وثانيهما ردّ عليه بأن اعلن في نبرات نبوية حقاً ، ان الكون كله فوق طاقة المعرفة البشرية ، ومع ذلك فهو جدير بالتسبيح والابتهال . ففي وسع الانسان ان يفهم بعضه ، وان يتكهن ببعضه ، ولكن لن يكون في وسعه ان يعرف كل شيء .

الفصل الثاني

لن تعرف كل شيء

إن سفر ايوب يفرغ في قالب شعري تجربة أصيلة يبلوها كل انسان ، وهي تجربة تبدأ في عهد الطفولة الاولى ، وتمتد (ان لم تخدَّر او تُكبت) الى آخر ايام الشيخوخة . وهي اشد دفعاً للناس من العاطفة ، واليها يعود اكبر عدد من المآثر التي تميزنا عن الحيوان . هذه التجربة هي الشعور بالعجب والانبهار .

ما اغرب هذا الشعور ، فهو يجمع بين الرغبة في المعرفة وإدراك المرء بأنه ليس في وسعه ان يعرف كل شيء . هو دهشة دائمة . شعور يسلم بالعلم والمنطق ثم يتعداهما وينساهما . ففي دخيلة كل منا ، من المتوحش في ادغال الامازون الى العالِم المحلِّل في معمل الابحاث ، من الفتاة السويدية في المصنع الى صياد السمك في الملايو ، من الدبلوماسي الى الشرطي السرّي ، من الشاعر الى الفلاح ، شعورٌ بالاغتباط وتسليمٌ بالاشياء التي نستطيع ان نعرفها ونعالجها ، ولكن الى جانب

هذا الشعور ، هناك ادراك مبهور بوجود [illegible]
من الكون . حتى ادنى الرجال الى النجاح العملي [illegible]
المظفَّر أو السياسيُّ القويّ — يرتدّ الى ماضيه [illegible]
يستذكره من مخاطر نجا منها او إخفاق تخطاه وغلب [illegible]
وهو مع ذلك يعرف أنه لا يستطيع ان يتكهن بما قد يحدث له في يومه المقبل . اما العامل الكادح البليد الذهن الخابي الرجاء ، فتراه يرفع بصره في حين بعد حين ، لان شيئاً غريباً يقع ، ثم يمضي في حياته ، لانه من المستحيل ان يُخطط المستقبل كله . واحكم العلماء يرى ان كل حق يكشف عنه ، يفضي به الى اسئلة عن اشياء لم تدرك ، فلا ينفك يقف ، « كراصد السماء متى رأى كوكباً سياراً قد دخل مجال بصره » واذا هو يتفرس في ابسط الاشياء ، كورقة خضراء او جرثومة او قطرة دم او صخرة ، فكأن نظره لم يقع عليها من قبل ، طوال حياته ، فيعلم ان عقله لن يحيط بها ابداً .

« ان عقلنا يريد ان يحيط بكل شيء ولكنه يدرك انه لا يستطيع . هذه هي المفارقة ، اذ ينبغي للمعرفة ان تعرف حدودها . »

ومن الواضح ان هناك نوعين مختلفين من الحدود المفروضة على المعرفة البشرية ، اما الاول فهو نوع يفرضه البشر انفسهم ، واما الثاني فأصيل في تركيب العقل وصلته بالكون . اما اصدقاء ايوب فقد كانت معرفتهم مقيّدة بالنوع الاول من الحدود ، واما ايوب نفسه فقد ادرك النوع الثاني وسلّم به .

الفصل الثالث

العوائق الخارجية

إن قدرة العقل البشري على العمل تفوق كل جهد قام به العقل على الاطلاق ، والرجل السويّ يستعمل جميع عضلاته خلال حياته بعد البلوغ ، ولكنه يدع اجزاء كبيرة من مخّه ، قد تبلغ ثلثيه ، في سبات عميق . ولن تجد بين كبار المفكرين المبدعين رجلًا شكا قصور عقله عن مجاراة ما يطلبه منه ، او ان مخّه كان اداة غليظة مفلولة الحد ، بل على الضد تجدهم يعترفون بان الحياة تشرف على ختامها ، قبل ان يتعلموا كيف ينتفعون بعقولهم أكمل انتفاع وأتمه .

فلماذا نجد هذا العدد الكبير من الجهلة والسخفاء في العالم ؟

ليس ثمة ريب في ان سبب ذلك هو ان بعضهم — كأفراد — يسيئون استعمال العقل ، وان غيرهم يعيش في جماعات تثبط نشاط الفكر .

كثيرون من الناس في جميع ارجاء الارض هم افراد كسالى. فيدعون العقل الذكيّ المتوثب الذي كانوا يستمتعون به في شبابهم، لَيَتْقىً مهملًا لا ينتفعون به خلال بقية حياتهم، فتتراكم فوقه طبقة من الاعمال الرتيبة، او يأكله الصدأ من قيل وقال لا يغنيان، او تسد مسامه ثرثرات لا معنى لها تؤخذ من الصحف والاذاعة، او يهمل استعماله الا في علاج المشكلات اليومية، او في استعادة لا تنتهي لذكريات ايام مضت. ويستطيع العقل النشيط في كثير من الاحيان ان ينضو عن نفسه هذه اللفائف، ويطلب العمل، واذا صاحبه يلهيه بعمل لا يجدي ولا يوائم. وكثير من الرجال الذين يكرهون على غير وعي منهم، السأم والرتابة في حياتهم، يحاولون ان يخففوا من ضجرهم، بالتفكير – ولكنهم لا يفكرون فيما ينبغي لهم ان يفكروا فيه، فيحاول بعضهم ان يستذكر اسماء الجياد الثلاثة الاولى في السباقات الكبيرة منذ اربعين سنة، او معدل النجاح لالفين من كبار لاعبي الكرة. وكثيرات من النساء تجدن اعظم غبطة عقلية في ان تجمع احداهن وتبوّب طائفة كبيرة من المعلومات الاجتماعية: عن صلات الزواج والقرابة بين الناس، ومواطن الضعف في هـــذه الاسرة وتلك، وهكذا. واخيراً تجد رجالاً ونساء يتصفون بالذكاء، ولكنهم يبددون مواهبهم لانهم لا يدربونها

ولا يروضون انفسهم على الانتفاع بها انتفاعاً صحيحا ، فهم يعنون بتجميع معلومات كثيرة متناثرة لا رابط بينها ، ولا دليل على صحتها ، ثم يبنون عليها نتائج وآراء . فأمثال هؤلاء الناس يصيرون ذوي أطوار غريبة ، او تعصب ، او هواة فلسفة ما وراء الطبيعة ، فهم ليسوا من الأغبياء ، بل لهم عقول ولكنهم يفسدونها .

بيد ان اعظم خسارة تنزل بعقول الناس ، مردّها الى المجتمع . واذا القيت نظرة على العالم وسكانه الذين يبلغون أكثر من ألفي مليون ، وذكرت ان عقول كثيرين منهم مشلولة او معطلة ، احسست بمثل الأسى الذي يساور الطبيب حين يرى اجسام معظم البشر : غذاؤها سيء وعلاج اوصابها فاسد ، وقوامها تشوهه الأزياء السخيفة في الملبس والمسكن . فهؤلاء أحياء تتحطم قواهم وتنحط عن جهل أحياناً ، وتشوه عن اذى عمد احياناً .

(اما العقول فمقيدة من الناحية الاجتماعية بثلاثة قيود ، هي الفقر ، والخطأ ، والقصد العمد .)

الفقر

والفقر هو طبعاً القيد الرئيسي . وقد كتب جونسون ، مجارياً جوفنال الروماني فقال :

الموهبة تتفتح في بطء متى اناخ عليها الفقر .

واكثر الناس يعيشون على مستوى يعلو قليلاً عما يكفي لحفظ الرمق ، ولا يكاد يكون في وسعهم ان يقتنوا كتباً ، او أن يأجروا معلمين ، او ان يشيّدوا مدارس . فالكليات والمعامل ودور الكتب والجامعات بعيدة كل البعد عن منالهم . والعقل يتعرض بعد كل حرب كبيرة لاكبر المخاطر ، اذ تدمّر الكتب والمدارس في خلال الحروب ، ثم يصعب بناء ما دمّر وتجديده على وجه وافٍ من السرعة ، فيشبّ الصغار وكأنهم همج . وهذا هو سبب تلاشي الحضارة في فترة تتعاقب فيها الحروب وتتوالى . فالتربية رهن بالتراث ، والنظام ، وما تزوّد به المعاهد من المعدّات ، فاذا قضيت عليها جميعاً وأزلتها خلال نصف قرن ، أصبحت البلاد مكتظة بالجهلاء ، وهذا هو أخوف ما يلقاه المرء في اوربا في مطلع عصور الظلام منذ خمسة عشر قرناً . فقد كانت الكتب كثيرة في السنة ٤٠٠ بعد الميلاد ، ولعلها كانت اكثر من الحاجة اليها يومئذٍ . فلم تنقضِ ثمانية أجيال او عشرة حتى صار الكتاب شيئاً عزيزاً ، يصان ويحرس ويجلّ ، ولا يكاد يفهمه اكثر الناس. وكان العالِم يرسل الرسائل خلال مناطق يعيث فيها قطاع الطرق ، ليسأل صديقاً له في بلد ناء إنْ كان عنده كتاب ما ، وهل يتفضل فيسمح له به حتى ينسخه ثم يعيده اليه ! وقد رُوي ان القديس كولمبا الذي اوفد مرسلاً من مسيحي

ارلندا الى الاسكتلنديين ، خاصم القديس فينيان من اجل كتاب فرد ، ألّفه فينيان ونسخ كولمبا نصوصه مكبّاً عليها ليلة بعد ليلة . وقد انتهى الخصام الى قتال بين العشيرتين ، بعد ان قرر ديارميت ملك ارلندا ، أنّ النسخة تخص فينيان «كالعجل يخص أمه البقرة» . وان نظري لا يقع مرة على كتاب كتب في عصور الظلام ، بصفحاته المصنوعة من جلد البقر ، وحروفه التي افرغ الجهد في إتقانها ، دون ان اشعر بالاعجاب – بالناسخ الذي نسخه رويداً رويداً ، وبأصحاب المكتبات الذين صانوه خلال قرون من الحرب والنهب والاهمال المجرم ، ودون ان احسّ بتجدد الرجاء والثقة بمستقبل البشر . واذا ما نزلت بنا كارثة كهذه الكارثة ، فسيبذل كل منا غاية ما في الوسع لعون اخيه . فيعمد الاطباء والممرضات الذين ينجون من الكارثة الى وضع خطط بسيطة للصحة العامة والتدريب الطبي ، ويمضي رجال الدين في خدمة الله حتى بين الأنقاض ، ويبتكر المهندسون وسائل للمواصلات والنقل والخدمات العامة بما يكون بين ايديهم من ادوات يستنقذونها أو يلفقونها . امــا المعلمون فسرعان ما يبدأون البحث في الانقاض عن الكتب ومعدات المعامل ، ثم يفتحون مدرسة .

ومع ذلك فالفقر ، حتى فقر الجماعة كلها ، ليس حاجزاً مانعاً يحول دون تربية شعب قد عزم ولا ينثني ، عن التضحية في سبيل ذلك . فالجماعةُ بأسرها قادرة ان ترفع مستواها

خلال خمسين سنة اذا تضافرت جهودها ، او هي قادرة ان تصون نفسها قروناً متوالية من عواد متوالية تثبط الهمة . ففنلندا من افقر الامم في اوربا ، ولكنها انشأت مدارس ممتازة ، وابناؤها اكثر ثقافة من ابنـــاء امم اغنى منها. واسكتلندا لم تكن ثرية في عهد ما ، ومع ذلك فقد أمّنت قيام اربع جامعات فيها منذ عهد الاحياء ، وتاريخ كل من هذه الجامعات ينطوي على قصص طلاب من ابناء الفلاحين نشأوا في فاقة سوداء ، وكادوا ان يعجزوا عن شراء الملابس الموافقة ، ولكنهم برغم ذلك شقوا طريقهم في الجامعة ، يكتفون من الطعام بقليل من الشوفان والسمك المملح يرسل اليهم من اكواخ أهلهم ، ثم نهضوا الى ذرى الامتياز علماء ومخترعين .

الخطأ

الفاقة تبعث الاسى في النفس واما الخطأ فيثير السخط . واشد حزن يبلو النفس هو ان تتبين كثرة العقول الجيدة التي افسدها الخطأ ، او التثبيط ، او سوء التوجيه في العالم قاطبة خلال قرون متوالية من التربية . وقد كان مستوى التربية في بعض الاحايين اعلى من ان يرقى اليه الطالب الوسط . فكان نصيبه الاهمال ، فافضى ذلك الى خنق مواهب كامنة . وكثيراً ما اتيحت اسباب التربية الحسنة لفئة مختارة

وتركت البقية يأكلها جهلها . ونحن نعلم ان النساء لم تفتح لهن ابواب المشاركة في ثقافة شعوبهن وثقافة العالم ، الا في عهد أناس لا يزالون على قيد الحياة بيننا . وكلّ برهمي في جنوب الهند يدخل مدرسة جيدة ، ولكن ما اعسر ان يتاح لفتى من الطبقات الدنيا هناك ان يتعلم كيف ينتفع بمواهبه ، او حتى ان يستكشف انه موهوب . وتجد احياناً ان تاريخ الامة وبنيانها الاجتماعي يجعلان التربية شيئاً نادراً او عسيراً او مقيّداً بقيود التخصص . ففي الصين مثلًا لا تجد لغة محكمة بل عدداً من اللهجات التي لا يفهم اصحاب بعضها ما يقوله اصحاب البعض الآخر ، ثم هناك لغة واحدة مكتوبة مؤلفة من صور لا تقابل احدى اللهجات ، وهي عسيرة على التعلم . ولذلك لم يكن بدّ من ان تنحصر التربية في الصين في قلة ضئيلة من الناس يستطيعون ان يستذكروا صوراً مرئية ويفكروا تفكيراً مجرداً . وتجد ايضاً في مجتمعات كثيرة ان الشعائر الخارجية للدين او الحياة الاجتماعية قد بلغت مبلغاً عظيماً من التعقيد حتى ليحتاج العقل الى ان ينفق طاقة عظيمة ليتذكر ويفصل طـــائفة من الاصوات والعلاقات العارضة والنوافل . وفي بلدان كثيرة تجد الاحداث الموهوبين ينفقون سنوات في استظهار فقرات دينية وتراتيل – احياناً كثيرة في لغات لا يعرفونها سوى معرفة ضئيلة – حتى يستطيعوا ان يتلوها عن ظهر قلب دون ان يرتكبوا اقلّ خطإ في مقاطعها ، ودون ان يحللوا معانيها او يفهموها ايضاً . ومعظم

علماء الانسان يدهشهم ما ينفقه الرجل من ابناء التبت او نافاهو ، من الطاقة العقلية في استظهار كل مرحلة من مراحل حفلة دينية معقدة ، حيث المذبَّة المصنوعة من ذيل البقرة، يجب ان تضم سبع عشرة خصلة لا تنقص ولا تزيد ، والقطعة المربعة الزرقاء من القماش ينبغي ان تقابلها دائرة من اللون القرمزي ، والصندوق المقدس ينبغي ان يحتوي على خمس وثمانين خرزة لا أكثر ولا اقل . وعلى غرار ذلك ما ينفقه صياد في بلدة صغيرة قائمة على ضفة نهر ، من طاقة عقلية في تحديد علاقته بطواطم حيوانات مائية او اسماك شتى ، ثم بالجمعيات السرية التي تتغلغل في هذه النظم المعقدة ، حتى ليبدو احياناً ان الناس ينظمون حياتهم قصداً ليزيلوا منها التفكير في الاصول .

ولكن العقول تهدر ايضاً اذا تعلمت تعليماً غير وافٍ او غير مُجدٍ ، او اذا قام على تعليمها معلمون ذوو اغراض ضيقة ، او إذا روّضت في مدارس تبالغ في تساهلها او اهمالها . ونحن لا نزال نذكر تلك الصور الساخرة التي رسمها الكتاب منذ مئة سنة ، لمعلمين في المدارس ، قسمات وجوههم كالحة ، وفي أيديهم عصيّ ، يرهبون بها جماعات التلاميذ المروعين . وقد كان هذا كله جزءاً من مذهب التزمت الديني (بيوريتانزم) في مطلع القرن التاسع عشر ، ولكن الزمن عفّى عليه الآن ، سواء أكان ذلك شيئاً حسناً أم لم يكن . ولعلّ الساخر

الحديث يكون ادنى الى الحقيقة اذا عكس الصورة اليوم، وأظهر المعلم منكمشا امام جماعات تتوافد عليه كل سنة من فتيان وفتيات أجلاف، راضين عن انفسهم ولا يهمهم سوى السطحي من الامور، فاذا هو يستدرجهم بدلاً من ان يأمرهم، ثم يحاول ان يصون استقامته الفكرية وحماسته ومحبته للانسانية وعنايته بالمعرفة، بما يتمتمه لنفسه قائلا: «ربي اغفر لهم فهم لا يعرفون ما اصنع». ان التعليم العام لا يزال تجربة جديدة في ثقافتنا المعاصرة، بيد ان إلغاءها ينذر بشؤم لا يخطئه النظر. واقبـــال الناس على التربية ليس اجماعاً، وبعضهم يقاومها طوال حياته. واذا لم تكن التربية امتيازاً يُطلب اصبحت عبئاً، والمعلمون في الجامعات الحكومية الجديدة والمدارس الالزامية، يحسون احياناً كأنهم اطباء يحاولون ان يفسروا لمريض لا يريد ان يفهم، ان الطعام النقي أفضل من الطعام الفاسد، او للأمهات بانه خير للأم ان تهدهد الطفل على زجاجة من اللبن الحليب بدلاً من ان تجرعه كأساً من الكحول.

والعالم الغربي يواجه اليوم ثلاثة اخطاء تفسر الضعف الذي منيت به التربية المعاصرة في اقطاره.

اما الاول فهو الفكرة الخاطئة بأن المدارس أنشئت في المقام الاول لتدريب البنين والبنات على حسن المعاشرة الاجتماعية والاندماج في جماعتهم، مزودين بضروب من الحذق

في الحيـــاة الاجتماعية و « مروّضين على التعاون في الاسرة والجماعة » وما كان على غرار ذلك .

ومن البيّن أن هذا الغرض هو واحد وحسب من اغراض التدريس ، وكثيراً ما اهمل في الماضي مع انه كان يتحقق كنتيجة ثانوية للتربية . فالمدرسة والكلية في احدث مراحل التاريخ الاميركي كان عليها ان تنهض بوظيفة مفيدة ولا غنى عنها ، وهي ان تخلق للثقافة نموذجاً متسقاً الى حد ما ، يأخذ به ابناء الطبقة الوسطى ، وان تنشئ نظاماً اجتماعياً مستقراً ينضوي فيه ويألفه اولاد المهاجرين الذين تدفقت وفودهم على الولايات المتحدة تدفقاً منقطع النظير بين سنتي ١٨٨٠ و ١٩٢٠ . ولكن للتربية غرضاً آخر يعدل ما تقدم ، خطر شأن او يفوقه ، وهو ان تدرب عقل الفرد تدريباً شديداً محكماً وان تحفزه وتشجعه بشتى الوسائل المتاحة ، لأن أكبر شطر من حياتنا الاصيلة وافضل شطر منها نقضيه كأفراد ، ولان احتفاظ كل منا باستقلاله أمر لا غنى عنه في عصر يتسع فيه نطاق ثقافة الجماهير .

واما الخطأ الثاني فهو الاعتقاد بان التربية هي عمل له حدّ ينتهي عنده ، فيتوقف توقفاً كاملاً يوم يبدأ المرء مرحلة البلوغ من حياته . وقد كان لي صديق في اثناء الحرب ، تابعاً لفصيلة في الجيش لم يكن فيها امّيٌّ واحد ، ولكن أحداً منهم لم يفتح كتاباً للمطالعة . فاشترى صاحبي روايات

— من ذوات الغلاف الورقيّ — وكُتُبَ رسائل أدبية ليطالعها في ساعات السأم الطويلة التي تعدّ شيئاً لا ينفصل عن الخدمة العسكرية. وكان إخوانه في الفصيلة يراقبونه متحيرين من أمره وهو يقلب الصفحات ويقرأ الكتاب تلو الكتاب. فلما ألقى الكتاب الخامس عشر ومد يده الى السادس عشر اقبل عليه احد خلانه وقال: «انك لا تنفكّ تدرس، افلا تتعب؟» فهذا الفتى كان عاجزاً عن ان يتصور ان قراءة الكتاب قد تكون متعة لا عملًا صعباً مرهقاً. وعلى هذا الغرار كثيرون من الشباب الذين يتخرجون من المدارس والكليات في اوربا واميركا الشمالية والجنوبية واستراليا وغيرها، فانهم لا يكادون يفعلون حتى يهملوا عنايتهم باللغات، وينسوا ما تعلموه من العلوم (الا اذا شغلوا منصباً علمياً) وينصرفوا عن التفكير السياسي والاقتصادي، ويعجزوا عن ان يعقدوا صلة الوصل بين التدريب الفكري الذي تلقوه خلال اربع سنين او ثمانٍ وبقية حياتهم. فكأنك تتعلم الموسيقى خلال عشر سنوات او نحوها ثم تهمل الذهاب الى حفلة موسيقية او النقر على الاوتار نغماً واحداً. والملامة في هذا تقع على المدارس والكليات والمعلمين، لا ريب في ذلك. ان كثيرين من المعلمين (ولا سيا في الكليات) يحدّون من اهتمام تلاميذهم بما يوحونه اليهم من ان غرضهم الحقيقي الاصيل انما هو تدريب العلماء الفنيّين، وان العناية عناية هواةٍ بموضوعاتهم هي شيء مستهجن.

اما الخطأ الثالث الذي يحدث من الاهتمام بالمواد في العالم الغربي، فهو الظن بأن التعلّم والتعليم [illegible] دائماً ثمراً داني القطوف، وان يفضيا الى ربح و[illegible] ان القصد من التربية هو ان تنتفع بها شخصية الطالب [illegible] ولكن يستحيل – ولا يستحسن – ان نقيم الدليل على ان اهم المواد التي تدرّس في منهج معين من مناهج التربية [illegible] بأن تجعل المتعلّم غنيّاً، او صالحاً للحياة الاجتماعية، او توفر له عملاً. فالشعر افضل من كرة الطاولة، والرجل الذي لا يعرف شيئاً عن علم الحياة هو في هذا الباب اقلّ شأناً من الرجل الذي يعرف، وان كان اولهما اوفر مالاً، ودراسة الفلسفة قلما تجعل المقبلين عليها اغنياء، فهي تشبع فيهم غريزة تجأر جوعاً الى هذا الشبع، كغرائز حفظ النوع والتناسل. وإشباعها اشق. والناس الذين لا يعرفون التاريخ، ينساقون الى تعلُّم أخطاء تُسمّى تاريخاً، ويعجزون عن فهم اللحظة العابرة اذ تتحول وتصير جزءاً من التاريخ. ومع ذلك نجد احياناً مشقة كبيرة في اقناع الشباب بهذا، وفي شرحه للوالدين ونظار المدارس. وعاقبة ذلك اهمال مواد دراسية مثمرة وذات شأن، واسقاطها من برامج التربية وتجاهلها وتشويشها. فآداب اللغة الانكليزية من اجود الآداب في العالم قاطبة، وهي شيء ينبغي للمرء ان يفخر به وان يستمتع. فكل من يتعلم قراءة اللغة الانكليزية وكتابتها يقبض بيده على مفتاح كنز ضخم لن يناله الفساد. وفي هذه

الآداب منذ عهد تشوسر الى عهد إليوت ذخائر تكفي لجعل المرء سعيداً ، مفكراً ، وفصيحاً مدى الحياة . ومع ذلك ترى ابواب هذا الكنز توصد في وجوه كثيرين من البنين والبنات الساكنين في البلاد التي اخذت باللغة الانكليزية . فالمعلمون يقولون لوالدي التلاميذ ان اللغة « اداة » وبدلاً من ان يأخذوهم بأيديهم ويبينوا لهم كيف يستطيعون ان يقرأوا ويستمتعوا بأفضل خمسين كتاباً من هذه الكتب العجيبة ، تراهم يعلمونهم ما يسمونه « فنون اللغة » وهي بالقياس الى الادب كبصمات الاصابع الملوّنة بالقياس الى روائع فنّ التصوير . وعدد الفتيان والفتيات الذين يدخلون المدارس الثانوية والكليات يطّرد زيادة عاماً بعد عام. اما مستوى التعليم فيهبط رويداً رويداً عاماً بعد عام . وليس سبب ذلك ان الانحطاط أمر لا مفرّ منه متى اقبلت الجماهير على نظم التعليم ، بل سببه اننا نبلغ حدود التهور في استعدادنا لتبديد قوى العقل في الشباب ، وإهدار تراثِ الماضي الذي لا يقوّم بمال .

القيود

وأخيراً هناك نوع ثالث من القيود الخارجية التي تحدّ من المعرفة . وذلك هو التقييد العمد ، يفرضه صاحب سلطة سواء اسياسية كانت ام اجتماعية ام كنسية . افهناك شيء يسوّغ هذا التقييد؟ واذا كان الجواب بالايجاب فمتى ولِمَ ؟

والى اي حد ينبغي ان تمتد، وكيف ينبغي ان تقيّد؟ انها مسائل عصية، وقد دار من حولها نقاش حاد، لانها تحرّك اهتمام الناس وتثيرهم، وقد كتبت كتب كثيرة في موضوعها، حتى حجبت كثرتها المبادئ التي لا بد من الرجوع اليها في كل محاولة تبذل للاجابة عنها:

اما اولا فمن الواضح انه لا بد من ان تفرض بعض القيود على حق المعرفة. فالمجتمع قائم على تقييد الحقوق تقييداً عادلاً من اجل منفعة الجماعة.

(شؤون الفرد الخاصة) فليس لاحد حق مثلًا في ان يعرف، او ان ينشر، تفاصيل الحياة الخاصة لمواطن آخر ما دامت هذه التفاصيل تعدّ خاصةً حقاً. وليس لاحد حقٌ في ان ينال وينشر اخباراً عن اعمال مواطن ما، ان لم يكن لها علاقة بيّنة او اثر واضح في مصلحة امرئ آخر او في خير الجماعة. فاذا كشَفْتُ أنَّ جاراً لي قضى منذ عشر سنوات فترة في السجن، رزقت زوجته في خلالها بطفل من رجل آخر، فليس من حقي على الاطلاق ان انقل هذه المعرفة الى الجمهور، الا اذا قام دليل على ان مصلحة الجمهور تضار اذا ظلّ هذا الامر خفياً عليه. والمحامون يقولون ان جريمة القذف تكبر على قدر ما تكبر الحقيقة. ففي الحياة نواحٍ لا بد فيها من حماية الفرد من افراد آخرين، او من فئات، او من المجتمع نفسه. ومن البيّن ان اعظم الحقوق

شأناً هو حق المرء في ان يختار ممثلاً سياسياً يؤيد مصالحه ويصونها . ولكي نصون هذا الحق ، نضحي بشيء من حق المعرفة ، ونسنّ قانوناً بأنّ اقتراع المواطن ينبغي ان يكون سرياً .

(الشؤون الخاصة للجماعة) وكذلك كل جماعة لها الحق في ان تحمي نفسها ، على ان يكون لوجودها اساس من حق شرعي وادبي . فلذلك تستطيع ان تحظر على الناس ان ينتفعوا انتفاعاً حراً بمعرفة قد يكون في اذاعتها إضرار بها . وكل عمل تجاري ومالي له اسرار ابتاعها صاحبه او كشفها ، فليس من حق الجمهور ان يطلع على هذه الاسرار ، الا اذا اقتضت ذلك مصلحة الجماعة كلها ، ومتى اقتضته . وذلك لان الجماعة انما تقوم من اجل الافراد ، وفئات من الافراد ، وليس العكس صحيحاً . (طبعاً نشأت جماعات كثيرة حاولت ان تلغي حياة الفرد إلغاء تاماً ، وان تجعل كل عمل وكلمة وفكر شيئاً مباحاً ويجوز تداوله ونقله . ولكنها كانت جماعات صغيرة ، عابرة ، متخصصة ، او منحطة انحطاطاً روحياً وعقلياً) اما الجماعات الكثيرة المنظمة ، كالكنائس والاحزاب او الشعوب ، فتعمد فعلاً الى صيانة اسرارها ، والكثرة من الناس تذهب الى ان الانسانية عامة لا حق لها في معرفة تلك الاسرار — الا اذا اقتضاها خير الجماعة ومتى اقتضاها . فالكنيسة الكاثوليكية لا ترى ان للجمهور حقاً في ان يعرف

مصادر دخلها ومقداره، او اين تثمّر اموالها وفيم تثمّرها. والشعب السويسري هو شعب مسالم، شديد الاعجاب بتقدم العلم، ومع ذلك فلن تجد سوى سويسري مغفّل او خائن يطالب بأن يذاع مكان كل لغم او مدفع في نظام الدفاع السويسري، وان كان في اذاعته يدٌ تُسدى الى تقدم العلوم الحربية. وكذلك تملك كل امّة اسراراً حيوية، لا يسعها ان تبيحها للعالم كله، دون ان تعرّض كيانها المستقل للخطر، بمساعدة اعدائها او من قد يصير في عداد اعدائها. وليس ثمة ريب في انه متى قام السلام العالمي على اركان راسية، تصبح شعوب الارض وحكوماتها غير حريصة على اخفاء اسرارها بعضها عن البعض الآخر، ولكن هذا لا يعني مطلقاً ان نشر الاسرار القومية في هذه المرحلة من مراحل التاريخ، يمهّد لارساء السلام العالمي، وبخاصة لان الحروب التي نشبت في العهد الحديث والتي قد تنشب في المستقبل المنظور، لم تكن نتيجة جهل بالحقائق، بل نتيجة توتر انفعالي، ومطامح جامحة، وبغضاء متأصلة وعقائد يشن اصحابها حرب جهاد ليفرضوها على غيرهم. ولن يكون في وسع احد ان يجمع من الوثائق ما يحبّب الالمان الى البولنديين، او يفضي الى تعزيز ثقة العرب باليهود، وكل محاولة تبذل لحل مشكلات من هذا القبيل بنشر المعرفة هي مضيعة للجهد.

(الرقابة) اهناك قيود لا بد من فرضها على المعرفة في

مجتمع بعينه؟ يلوح ان الجواب هو بالايجاب، اخذا بما يفعله كل مجتمع بشري. فالمجتمع ليس هيئة متّسقة من الافراد، وفي كل شعب رجال ونساء يخرجون على المجتمع ويأبون التعاون مع سائر افراده، وغير قليل من الناس متهوّر وخطر على المجتمع وعلى نفسه، في بعض مراحل حياته. واذن فقيود المعرفة تفرَض لكي يحمي المجتمع نفسه من الخارجين عليه والذين لا يقدرون تبعة ما يفعلون.

خذ ابسط مثل في هذا الباب: أمن الحكمة ان تذيع على الشعب كله وصفاً دقيقاً للاساليب التي تستعمل في صنع سموم بسيطة التركيب ولكنها مميتة، او متفجرات مدمّرة ولكنها رخيصة؟ طبعاً، لا. كل باحث مجتهد يستطيع ان يستكشف الحقائق التي يطلبها بمراجعة الكتب في دار عامة للكتب. وليس في معظم البلاد قانون صريح يمنع نشر كتاب مختصر او دليل يحتوي على هذه الحقائق. ولكن المجتمع يثبط بوسائله الفعالة نشر مثل هذا الكتاب، ويبتكر الوسائل لحصر هذه المعرفة في الفنيين الذين يحملون تبعة ما يفعلون، ولهم قصد مشروع في استعمال السموم او المتفجرات. وعلى غرار ذلك لا تجد حائلاً قانونياً في كثير من البلاد يحظر على ناشرٍ ما ان يسعى الى كسب المال بنشر كتيب يحتوي على ايسر الوسائل واسلمها لاحداث الاجهاض، ومعرفة هذه الوسائل تتداولها الالسن في بعض الجماعات، ولكنها لا تنشر نشراً حراً ولا يجوز ان تنشر.

ولكن المسألة تغدو اشد تعقداً وأشقّ إذا ما سألنا انفسنا كيف نسيطر على الناس المتهوّرين قبل ان يرتكبوا حماقات ضد المجتمع ، بفرض قيود او حدود على المعرفة التي تتاح لهم . وقد كانت هذه المسألة موضوع بحث ونقاش طويلين صريحين في الولايات المتحدة وغيرها ، خلال الاجيال القليلة الاخيرة ، ولم تحلّ حتى الآن . فثمة رجال ونساء ذوو فطنة وذكاء تراهم يقفون على طرفي نقيض حيالها ؛ فبعضهم يخشى الرقابة اشد الخشية ، مهما يكن القالب الذي تفرغ فيه . وغيرهم يرى ان خطر افساد اخلاق الناس ، وتحطيم حياتهم هو خطر اعظم ، وهم يعتقدون ان الكتب الفاسدة هي سبب ذلك . ومن البيّن اننا لن نصل الى اتفاق ، وشأن الخلاف في ذلك كشأنه بين محبذي الحكم بالاعدام ومخالفيه ، او مؤيدي إجراء التجارب الطبية على الحيوانات ومعارضيه . ولذلك ليس في طاقتنا ان نتقدم بحل يرضي جميع الفئات ، وجلّ ما يمكن هو ان نستوضح بعض المسائل المهمة .

والواقع ان معظم البلدان المتحضرة تمارس رقابة دقيقة على انواع معيّنة من المنشورات ، سواء اكان الناس يرون رأيـاً مدروساً في موضوع الرقابة أم لم يروا . والواقع ايضاً ان معظم معارضي الرقابة لا يؤمنون باطلاق حرية القول بغير تمييز على الاطلاق ، او بنشر جميع الوان المعرفة ، بغير استثناء . (من اغرب ما يعرض للمرء ان يستمع الى

ناشرٍ يعرب عن استنكاره المرّ للقيود التي يفرضها القانون ، او احدى الجماعات ، ثم ان يقول في نَفَسٍ واحد : عرض علي في السنة الماضية خمسة كتب او ستة أبَيت ان أمسّها) .

اما ميادين الرقابة التي يتفق فيها النظر والعمل ، فهي الميادين التي تتحوّل فيها المعرفة الى انفعال ، وحيث الاطلاع على الحقائق يجعل المتهورين عاجزين عن ضبط النفس والامتناع عن الاعمال الخطرة او المؤذية . والكثرة من الناس ليست خارجة على المجتمع ، وترى ان جانب الخسارة في الخروج عليه ، اكبر من جانب الربح فيردعهم عن الخروج عليه ، التفكير في عقار أو عملٍ ، او في زواجهم واولادهم ، او في المرض والشيخوخة ، او في الخوف من العار . ولكن كثيرين من الشبان والشابات بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين من العمر ، وبعض الفئات والافراد فوق الخامسة والعشرين ، يكونون ثوّاراً الى حين او دائمـــاً . فاستدراجهم وإقناعهم بالانتفاع بمواهبهم من اجل خيرهم وخيرنا ، يقتضينا ان نهدئ من ثائرتهم وان نحوِّل وجوه نشاطهم الى مجار لا تؤذي ، مشيدين باتباع النظام والتخفيف من حدّة الحماسة التي تضر ، وهذه الحماسة تكون اخطر ما تكون في ثلاث نواح : الجنس ، والعنف ، والسكر . ولذلك تقضي الحكمة بوجه عام ، بالحد من نشر المعرفة عن هذه الموضوعات نشراً مطلقاً من كل قيد . واليك الامثلة الثلاثة التالية :

يسيرٌ ان تنشر كتاباً عن ملاذّ تعاطي المخدرات ، فالثمل بالمخدرات له ملاذه ، وبعضها هو النجاة الهيّنة من واقع العالم (كما يقع لمدمني الافيون ، والذين يمضغون الكوكا ، او يدخنون الماريجوانا وهو اخف اثراً) . وهناك عدا المخدرات ما هو اشد اثراً واخطر عاقبة ، ولا يقبل عليه سوى المقاديم . ثم ان الانتماء الى جماعة من ذوي الجرأة يستهوي الشباب . وكتاب من هذا القبيل لن يكون بالضرورة تأملاً فيما لتعاطي المخدرات من نواح تمتُّ الى الروح او الجمال بصلة ، ككتاب بودلير او ده كونسي ، بل يصف الشعور الحسي وصفاً مفصلاً ، ونشوة كل نوعٍ ويبسط اجدى الاساليب في تعاطيها . وهذا كله يدخل في باب المعرفة ، افنجيز نشره نشراً مطلقاً من كل قيد ؟

اما القسوة والعنف فأبعث على حماسة اشد في بعض الناس وفي بعض الاماكن . وثمة وسائل كثيرة بارعة لإنزال الالم بالناس او بالحيوانات ، وقد صنع هوغارث صوراً بالخطوط الدقيقة جعل عنوانها « اطراد القسوة » وهي تبين مدى الرضى الذي يسبغه إلحاق القسوة بالغير ، على اصحاب النفوس الانانية الفاسدة التي لم يكتمل نضجها . فاذا وصفت بعض اعمال التعذيب والقسوة الوحشية من وجهة نظر المعذِّب ، اضفت بوصفك شيئاً الى المعرفة . ويقابل ذلك ان ملايين من الناس قد عذّبوا في عصرنا او هددوا بأعمال قسوة يقشعر لها الجسم . وفي الوسع تصنيف مجلدات تحتوي على ما حدث ، وتوزيعها

على ضحايا التعذيب واقاربهم او الذين لا يزالون يخشون قسوة من هذا القبيل . ففي اثناء القتال الذي نشب منذ عهد قريب بين السيخ والهنود والمسلمين ، ارتكبت فظائع كثيرة . افينبغي ان تنشر في الهند والباكستان مجموعات من الصور تبين ما تم ومعها وصف مفصّل لكل من هذه الفظائع على حدة ؟ افيكون الرجل الذي ينشر مجلدات كهذه المجلدات ، على انها اضافة الى المعرفة ، صديقاً محباً للانسانية او عدواً لها ؟ وهل يفضي عمل الناشر الذي ينشر كتباً عن ألوان التعذيب ، والصور الحية التي تشتمل عليها ، والوثائق التي لم تنشر من قبل ، الى مساعدة اخوانه في الانسانية او الى الاضرار بهم ؟

اما الحياة الجنسية ففيها ألوان كثيرة من الانحراف عن الطبيعي المألوف . واكثر الناس يلقون اعظم سعادة مقيمة في صلات جنسية سوية ، استعدوا لها في فترة المراهقة من حياتهم ، وتمتد خلال زواجهم الى محبة اولادهم . ولكن الناس يغريهم في عهد الصبا ان يعملوا اعمالاً وان يربوا عادات ، اجمع الناس على انها حمقاء وتحقر الذات . ومن الاغراض التي يتوخاهـا التدريب في الجماعة او الاسرة او الكنيسة او المدرسة او الكلية او المجتمع بوجه عام ، مساعدة الشباب على ان يتخطوا هذه المرحلة دون ان يصابوا باضطراب نفسي ، خلالها ، او بالندامة والشقاء فيما بعد . واذن فكل

كتاب يصف وصفاً مفصلاً الآثار المثيرة للاوضاع الجنسية المنحرفة هو كتاب ينطوي على خطر للمجتمع ، وان وُصِف حقًا بأنّ فيه إضافة الى المعرفة . يحسن بالطبيب النفسي ان يقرأه ليفهم مرضاه ، وبالقاضي أو الكاهن ايضاً ، اذ يجد فيه معواناً على الحكم بالعدل واسباغ الرحمة . ولكن لا يجوز ان يقرأه الشباب الذين « يغلي الدم في عروقهم » ، واما الذين بدأوا ينحرفون عن طريق السعادة فينبغي ان يحال بينهم وبينه وقاية لهم .

ان الكثرة الغالبة من الرأي العام في البلاد المتحضرة موافقة ضمناً او صراحة ، على فرض حدود للنشر الحرّ في هذه النواحي الثلاث على الاقل . وكلما ابتكرت وسيلة جديدة للتخاطب بين الناس ، فرضت هذه الحدود عليها حالاً او تكاد .

بعيد اختراع الصور المتحركة تمّ الاتفاق على الحد من عرض افلام تبين بعض اساليب القتل والتعذيب والسكر وتعاطي المخدرات والغريزة الجنسية وغيرها من الانواع المتطرفة في تجارب الانسان — وان كان في الوسع وصفها حقًا بأنها مطابقة للحقيقة ، او ان فيها اضافة الى المعرفة . فلما ظهرت اساليب الاذاعة والتلفزة طبقت عليها هذه الحدود . ويذهب بعضهم الى ان هذا الحد اشدّ واضيق مما ينبغي ، ولكن قلما تجد احداً ينكر المبدأ ، وان بعض التقييد امر ضروري .

وقلما تجد احداً يقدم على صنع فلم لمأدبة تؤكل فيها لحوم البشر مهما يكن مطابقاً لحقيقة الواقع ، ثم يوزعه بغير قيد على المسارح العامة ، او من يقدم على عرض برنامج متلفز يشمل الامة بكاملها ، ويمثّل فيه المآدب المشهورة عن مركيز ده ساد والتي كانت آيتها ألواناً شتى من التعذيب . ففي نواح قليلة ولكن خطيرة من نواحي الحياة ، يتحوّل الوصف في يسر وسهولة الى اقناع . والحماسة التي يثيرها الاطلاع على بعض ألوان التجربة سرعان ما تحرّك العواطف تحريكاً قوياً يفضي الى انقلاب في الشخصية ، ان لم تكن قد اعدت إعداداً وافياً لمقاومة هذا الاغراء عن طريق التربية الفكرية والخلقية . وقد وصف القديس اوغسطينوس صديقاً له ذهب على رغم منه الى اكبر المهرجانات الرومانية — حفلات الالعاب . فأغمض الشاب عينيه حتى لا يرى المتقاتلين يذبح بعضهم بعضاً ، او السيوف تلمع والدم يسيل من الجراح ، والجرحى يقعون الى الارض ، ثم مشهد ظفر الظافر ، واللحظة الاخيرة عندما يغمد النصل في اللحم الحيّ . ولكنه سمع صيحة الحماسة ترتفع من حناجر الجماهير حوله ، وفتح عينيه واذا هو في لمحة عابرة يستمتع بمشهد الدم والوحشية ، ويصيح من فرح عندما يرى القتل التالي . وقد كتبت كتب كثيرة في وصف مثل هذا الاثر في نفوس النـــاس . ومن السهل ان تؤلّف كتب اخرى وبخاصة في عصر كعصرنا ، حيث الانفعالات في نواح كثيرة من الحياة تغلب العقل ، وحيث نجد ألواناً شتى من الجنون

تطـّرد انتشاراً ، وليس بغريب ان يقدم بعض من طبعوا على الشر او الجشع او الاضطراب النفسي على تأليف كتب كهذه الكتب ، وان يوزعوها مستهدفين اغراضاً لا صلة لها البتة بنشر المعرفة .

وقد سبق وقلنا اننا لا نعرف حلاً عاماً لهذه المشكلة ، على الاطلاق . وعندما نبحث في وسائل السيطرة على الخطر والبذيء من الكتب والمجلات والافلام والمسرحيات والمعارض نلفي انفسنا عاجزين عن وضع خطة يوافق عليها جميع الناس . بيد ان المواطنين في الولايات المتحدة وغيرهـــا من البلاد الحرّة يجمعون على مبدإ واحد — وهو تعذّر اللجوء الى مبدإ عام . وقد جاء في التعديل الاول للدستور الاميركي ، سنة ١٧٩١ نص واضح كعين الشمس : « لن يضع الكونغرس قانوناً يحدّ من حرية القول او الصحافة » .

وهذا لا يعني ان مؤسسي هذه الامة ، الذين وضعوه ، كانوا يثقون ثقة لا حد لها باستقامة جميع الكتاب والناشرين وصدق حكمهم ، ولا هو يعني انهم نسوا ان اساءة استعمال حرية الصحافة شيء ُميسَّر ، ويعود على مجترحها بالربح الماديّ ، فقد كانوا يدركون هذه الاخطار . ولكنهم احسوا بأن سنّ قانون واحد يعين القواعد المتبعة لن يفي بالغرض فتركوا الامر للمجتمع يطبق العقوبات معدّلاً نصوصها حيناً بعد حين ، حسبما تقتضي الحكمة والمصلحة . وليس ثمة ريب في انهم ادركوا

ان الجمهورية سوف تنمو ، وتصير جماعة كبيرة منوعة العناصر ، وان فئات مختلفة ، تتباين مقامـــاً وتجربة ، سوف تختلف آراؤها ايضاً . ولعل شيئاً تنفر منه فئة ما ، تعدّه الاخرى شيئاً لا غرابة فيه ولا اذى ، واذن فكل منع شامل خليق بأن يسقط من حسابه آراء وانفعالات مقبولة عن بعض فئات للشعب ولهم حق في الحرص عليها . وكانوا يعلمون ايضاً ان الواجب الواقع على كاهل الامة كلها هو ان تربي نفسها تربية خلقية وعقلية ، حتى تستطيع ان تنهض بتبّعات نموها ونضجها .

وهذا هو الذي حصل . وما هو حاصل الآن . فليس من حقي انا وحقك انت او حق اي فرد او جماعة ان تفرض على اي مجتمع ، مـا ينبغي له ان يأخذ وان يدع . ان الواجب يقتضي كل مواطن ان يفكر فيما يجب قبوله او رفضه ، وان يزن بميزانه عواقب القبول والرفض ، ثم ان يتخذ قراره وان يعلنه . ومن المستبعد ان تجد جميع الناس يستمسكون بأن كل شيء ينبغي ان يطبع او يعرض ، وكل من يذهب هذا المذهب يلقى معارضة قوية من الجانب الاكبر من الرأي العام . ومن المستبعد ان تجد جميع الناس يعلنون انه ينبغي للمجتمع ألاّ يكون له موازين يزن بها الامور ، للتمييز بين القسوة والرحمة ، او الدعارة والطهارة ، او المرض الخلقي والصحة الخلقية . والواقع انك تجد هذه الموازين في كل مجتمع ، وليس ثمة ما يحظر عليه ان يطبقها على الكتب ،

او غيرها من نواحي الحياة العامة. وهذا لا يعني انه فرض على الامة ان تنشئ مجلساً رسمياً يتولى الرقابة، فمجلس كهذا خليق ان يكون آية قوة وآية ضعف في آن. ولكنه يعني ان لكل مواطن الحق في ان يكون رقيباً على نفسه وعلى اسرته، وعلى جماعته ايضاً، بالقدر الذي يستطيع ان يقنعها بأن ما يقوله هو صواب وحكمة. يحق له، بل يجب عليه، ان يحتج على الكتب والمعارض المشبوهة، كما يحتج على تلويث الهواء والماء والطعام، او على الذين يعكرون عليه راحته. اما كيف يسعه ان يجعل احتجاجه مجدياً — فذلك أمر مردّه اليه، فمن المستحيل وضع مبدإ عام. وواجبه العام يقتضيه ايضاً ان يكون احتجاجه قائماً على الحقائق، سليماً من الناحية الاخلاقية، ونافعاً للجماعة في اوسع معانيها.

العجلة من الشيطان، والعجلة في امور الاخلاق، كأمور الطب والتربية، يغلب ان تقوم على خطإ، والغرض الامثل هو الحرص على حفظ توازن سليم، وتوسيع نطاقه، ولن يتم ذلك الا بعد ان يفكر المرء في الموضوع تفكيراً طويلاً قادراً جميع عواقبه، وهذا التفكير هو واجب واقع على عواتقنا. والمجتمع الذي يضع حداً بيّناً بين الخير والشر أخلق ان يحيي حياة اطول واسلم من مجتمع يعتقد أن الفرق بينهما ليس بشيء ذي بال، أو من مجتمع يرى انه لما

كان حـل بعض المشكلات في زمن قصير شيئاً مستعصياً ، فمن العبث ان يكلف نفسه مؤونة التفكير فيها على الاطلاق. وإحدى هذه المشكلات هي مشكلة الرقابة . وهي تتغيّر لأن أخلاق المجتمع تتغيّر ، ومع ذلك فللأخلاق أساس دائم لا يتغيّر. فتقرير الأشياء التي لها قيمة ثابتة ، وإفساح المجال للتغيّر الطارىء والعابر ، هو لبّ الصعوبة فيما يقبل ويرفض من الكتب والآراء. إنها لمشكلة صعبة ، ولن تكون ميسّرة ، ولكنها لن تستعصي إذا عمدنا الى عقولنا فاستعملناها .

إيمان الجامعات

في نطاق هذه النواحي الخـاصة نجد اتفاقاً يكاد يكون عاما ، في جميع البلاد المتحضرة ، على أن الضرورة تقضي بفرض قيود على نشر المعرفة . فإذا خرجنا من هذا النطاق حمي وطيس الخلاف . ففي بعض الشعوب نجد تقييد المعرفة شيئاً ينال الاعجاب القوي ويطبّق ، أما في الشعوب الاخرى فتراه يطبّق برغم معارضة قوية ، في بعضها ، ويقاوم مقاومة صاخبة في بعض آخر . وفي داخل كل مجتمع تجد فئات توافق عليه وأخرى تعترض . وكل ما نستطيع أن نقوله هنا هو أن نؤكد الايمان الذي استمسكت به الجامعات الغربية خلال القرون الثلاثة أو الأربعة الأخيرة .

إيمان الجامعات الغربية قائم على ان لكل مواطن مسؤول حقاً مطلقاً لا يجوز نزعه منه ، في أن يحصل على معرفة الحقائق المثبتة في أي موضوع من الموضوعات التي يقبل عليها العقل – خارج نطاق النواحي التي تقدم ذكرها – وأن يحتفظ بها وأن ينشرها .

وهذا الإيمان يقوم على ثلاثة مبادىء ، احدها موضع نزاع ، والآخران ثابتان ولا خلاف عليها . وهي أولًا : أن ازدياد المعرفة خير . ثانياً : أن قوى العقل عظيمة وواسعة النطاق وينبغي أن تتاح لها فرصة نمو أتمّ . وثالثاً : ان اطراد نموّ المعرفة يخدم خير مصالح الشعب والعالم قاطبة . ومن اليسير أن يخلط المرء بين المبدأين الأوّل والثالث ولكنهما ليسا بمبدإ واحد . فمن الخير أن نزداد معرفة بالكون ، وبأنفسنا ، وان لم نجن نحن او سوانا ، منفعة اخرى غير المعرفة . فالمعرفة خير من الجهل ، وان لم تفض هذه المعرفة الى نتائج اخرى . والرجل الذي ينفذ الى معرفة نظام كوكبة من الكوكبات النجمية النائية ، او يكشف معادلةً تصف نموّ ورقة خضراء ، أو يجلو فترة مجهولة من التاريخ ، ليس بحاجة الى مسوّغ يسوغ به عمله ، فحسبه ما كشف ، ومن الجائز ألّا ينتهي عمله الى الانتفاع به ، ومع ذلك يبقى خيراً . وبعض المستكشفات التي أسفرت عنها البحوث العلمية الحديثة قد طبقت تطبيقاً يفضي الى الشر في نظر فئة كبيرة من الحكماء ، ومع ذلك تبقى هذه المستكشفات خيراً في حد ذاتها .

ولكن المبدأ الثالث هو المبدأ الذي يكثر فيه اختلاف الرأي ، ويُشَكُّ في صحته ، وبخاصة خارج جماعة المعلمين والعلماء والطلاب ، ولذلك كان مثار جدل خطير خلال قرون .

وقد شهدت العصور ، ماضيها وحاضرها ، فئات من الرجال والنساء ، يعلنون أن بعض ما دخل في نطاق المعرفة ، ينبغي أن يدمّر ، أو ان تفرض عليه قيود شديدة حتى يصبح من الأسرار . وليس الباعث على هذا الرأي عندهم ان الحقائق مدخولة او خاطئة ، ولا لانها خليقة ان تفضي بالعقول المتهافتة الى سلوك مناف للاخلاق ، ولكن لانه اذا ذاعت كان في ذيوعها اذى لجماعة خاصة من الناس ، او هيئة ما من الهيئات السياسية او الدينية او الاجتماعية . وثمة امثلة كثيرة على ذلك في جميع ارجاء الارض ، وهي تتزايد كل يوم .

ففي القرن التاسع عشر حاول الروس ان يقضوا على اللغة البولندية وآدابها ، فحظروا تعليمها ، وامروا بأن تلقى جميع المحاضرات في جامعة فرسوفيا باللغة الروسية . ومنذ عهد اقرب صدر الامر ، في ظل الحكم الالماني ، بتدمير دور الكتب البولندية او وضعها تحت رقابة الشرطة . اما الاسبان الذين غزوا المكسيك فقد دمّروا جميع الوثائق التاريخية — تقريباً — التي جمعها اهل البلاد . ولما اعلن غليليو ، خلال دراسته لمكشوفات كوبرنيكوس ، ان الارض ليست المركز الثابت للكون ، وانما هي كوكب سيّار يدور حول الشمس ،

اعتقل وسجن وهدّد بالتعذيب وحكم عليه بان يسحب قوله وهو جاث على ركبتيه . وقد رُوي انه تمتم : « ومع ذلك فهي تدور » . وحتى اذا سلمنا بأنه لم يتمتم بهـــذه العبارة فليس ثمة ريب في انه قالها في ذات نفسه ، في حنايا عقله الرياضي. وفي العصور الحديثة ، غُيّر التاريخ تغييراً كبيراً من اجـل اغراض سياسية . فبعد ان نال ستالين الظفر في صراعه مع تروتسكي ، أغفل ما فعله تروتسكي في انشاء الجيش الاحمر ، من كتب التاريخ الشيوعية ، ثم طاف طائف النسيان باسمه في الاتحاد السوفييتي . وقد امتد هذا التشويه الى تفاصيل دقيقة. مثال ذلك ان ابرع لاعبي الشطرنج كان رجلًا روسياً يدعى اليخين ، ولكنه تنكّر للثورة البلشفية ، فلذلك لا تجد له ذكراً في ما كتب عن تاريخ الشطرنج باللغة الروسية .

ان الاعمال التي من هذا القبيل ، تنبعث من غريزة بشرية عريقة . فرجل الكهف الذي رسم على جدار الكهف صور ايّل يعدو ، ثم رسم صورة رمح مغمد فيه ، لم يكن يتذكر شيئاً وقع بل كان يدفع شيئاً الى الحدوث . وعلى غراره الملك المصري الذي امر بان تمحى عن صفائح التماثيل ، اسماء سلفه العظيم وألقابه ، وان تحفر مكانها اسماؤه هو وألقابه .

واذا اتيح للدولة الكلية القدرة ، التي يضع لها الخطط فئة معيّنة من رجال السياسة ، ان تقبض على عنان السلطان

على الجنس البشري كله ، فيومئذ يكون مسلك «مدير الاعتقاد والدعاية» فيها غير مختلف عما تقدم . ولا يكاد ينتهي نضال ما من اجل السلطان داخل الفئة الحاكمة ، حتى يعمد هو او من يخلفه ، الى تدمير تاريخ الفترة السابقة بجميع وثائقه ، وتزوير وثائق جديدة ، وكذلك يتم له خلق المستقبل بصنع الماضي على مثـــال جديد . وغرض الاعمال التي على هذا الغرار ، هو إثبات سلطان فئة بعينها سواء احزباً كانت ام طبقة امِ كنيسة ام اسرة مالكة .

هنا مدار النزاع . ان كثيرين من الناس ــ ولعل الكثرة في العالم كله ــ يؤثرون ان يرفعوا من شأن سلطة النظم الاجتماعية والدينية التي ينتمون اليها على توكيد اولوية المعرفة . ولن تجد بين مئات الكليات والجامعات في ارجاء العالم سوى قلة منها وقفت نفسها على البحث عن المعرفة ونشرها وجعلت ذلك اهم أغراضها . واما البقية فمنصرفة الى تأييد سلطة ما ــ تربية الشباب على مذاهب البروتستانت ، او الكاثوليك ، او الاسلام ، او الشيوعية ، او اي مذهب آخر غالب في منطقتها . ولكن المعرفة الجديدة المنسقة وتيارها المخصب لم ينبثقا الا من الطائفة الاولى من الجامعات : من برلين وفينا واكسفورد وكمبردج وغلاسغو ولندن وهارفرد وييل وكولمبيا . فهذه الجامعات وقليل غيرها على غرارها هي منازل الاعلام الذين نالوا جوائز نوبل ، والمعاهد التي وضعت فيها مؤلفات التاريخ

العظيمة المحتذاة ، وكتب المراجع ، هي مراكز المعرفة التي تشبه الماس في انها وحدها تستطيع ان تمتحن نفسها . وفي الوسع تلخيص عقيدة جامعة من هذا القبيل تلخيصاً بسيطاً جريئاً ، وهو ان جميع المنظمات البشرية إلى زوال ولكن المعرفة تبقى . فالتعليم الذي من غرضه ان يؤيد حكومة ملكية دستورية هنا ، او ديكتاتورية حزب هناك ، او سلطة كتاب ، أو الاصل الالهي لشعب ما ، هنالك – قد يجدي بعض الجدوى ، في مكان او زمان بعينه . اما ان تتحرى الحقائق العالمية وان تعلّمها فهو خدمة تسدى الآن وفي المستقبل الى الجنس البشري قاطبة .

وانت تجد في فصل من اشرف الفصول في المهزلة الالهية لدانتي رمزاً رائعاً لهذا الفارق . فدانتي يصل في اثناء تجواله في الجحيم الى منطقة مخوفة ، تسكنها ارواح قد تحولت الى شعاليل حية . فهؤلاء هم مستشارو الشر . واذا احدهم يتكلم ، ورأس الشُعلول يتراقص كأنه لسان ، فيكشف عن نفسه ، فإذا هو روح الامير الاغريقي عولس الرائد والبطل الحكيم . فهو يروي كيف لقي حتفه . فقد ظل عولس بعد نهاية حرب طروادة عاجزاً عن الاستقرار خلال سنين ، لان شهوته « الى الظفر بخبرة العالم ومعرفة مفاسد الناس وحسناتهم » كانت لا تزال غالبة عليه . فجمع بحارة سفينته واقلعوا « ليبحروا الى ما وراء مغرب الشمس ومسابح النجوم الغربية »

مستكشفين المحيط الغامض الذي يُعرَف اليوم باسم المحيط الاطلسي، وضاربين في مغامرتهم وراء حدود العالم المعروف. وهناك، في غمرة المياه المترامية القاحلة الكالحة، ثارت عاصفة فضربت سفينتهم، ثم ابتلعتها اللجة. فكان ذلك قصاصاً أنزله الله بهم عقاباً لهم على وقاحتهم في التطلع الى آفاق قضى بأن تبقى محجوبة عن اعين البشر. هـــذا ما يقوله دانتي ناطقاً بلسان عقلٍ عاش صاحبه في القرون الوسطى. ولكن دانتي مفكر عالمي ايضاً فلذلك ادرك ما في فطرة الانسان من توق الى الفهم والمعرفة توقا لا يشبع، ولذلك وضع على لسان نفس الامير المعذّبة في الجحيم، بياناً من انبل ما جرى على لسان. فقد جعل عولس يقول لبحارته، اذ انكمشوا خوفاً من المجهول:

تبصروا في البذرة التي نشأتم منها،
فإنكم لم تنشأوا لتحيوا كسائر الحيوانات
ولكن لتسعوا وراء الفضيلة والمعرفة.

فهنا في عبارة واحدة يتجلى إيمان الجامعات الغربية.

الايمان والعمل به

ومع ذلك تجد هذا الايمان، كغيره، يطبق احياناً كثيرة تطبيقاً غير حكيم، وتشوهه احكام عامة تطلق بغير حذر.

وقد كان عرضة في العصر الحديث لضرب جديد من عبادة الاصنام غزا ملكه ، هو : عبـــادة العلم – من حيث هو سلطان جديد يحل محل سلطان الملوك والكنائس ويكاد يطلق عبّادهُ من واجب الفكر المستقل ، لا من حيث هو اسلوب من اساليب البحث . ثم ان فئة من المعلمين والمستكشفين المتحمسين وسعوا نطاقه حتى شمل مـــا لا يخصه ، وافسده بعضهم بمنطق سقيم . فمن المألوف في المدارس الشيوعية ان يقال ان العلم قد اقام الدليل على ان الله غير موجود . وهو توكيد يبلغ في سخفه سخف من يقول ان علم الجبر يستطيع ان يقيم دليلًا على روعة الغروب ، او ان علم الكيمياء يستطيع ان يقيم الدليـل على نقاء الحافز الذي يحفز المرء الى عمل ما . والبلاد غير الشيوعية تقع في اخطاء على غرار هذا ، فينبغي ان نتبينها وان نتجنبها .

وينبغي ايضاً ان نميّز الفوارق بين الحقيقة النظرية والتعليل او التفسير والفرض . وعمل كل باحث علمي يشمل ناحيتين ، إحداهما الكشف عن الحقائق ، والثانية وضع صورة عقلية او نظرية تفسر الحقـائق مجتمعة مع حقائق اخرى معروفة . فالواجب يقتضي العالم والذين يأخذون بقوله ، ان يميزوا بين الناحيتين ، وعليهم ان يقبلوا الحقائق التي قام دليل على صحتها ، وان يدركوا ان كل تفسير انما هو تفسير لا يدوم . فالخبراء النازيون الذين اعلنوا ان « العلم » اثبت تفوق بعض السلالات

على غيرها كانوا يقولون كلاماً غير علمي ، وكل من يؤكد ان نظرية دارون في الانتخاب الطبيعي هي تفسير واقعي كامل لا يأتيه الباطل ، لاصل الجنس البشري وغيره من الانواع ، يجاريهم في الخطإ . فالتفسير هو غير الحقائق ، وعبارة « نظرية علمية » قد تطوي احياناً تناقضاً بين لفظيها .

ثم ان الحقائق ليست احكاماً على قيمة الاشياء . واذن فعلى العالم الذي يكشف الحقائق ويعلمها لتلاميذه ان يقدّم الحذر ، ويحجم عن الظن بأن الحقائق تسبغ عليه الحق في ان يفرض عليهم موازين خـــاصة للخير والشر . فحق المرء في الظفر بالمعرفة هو غير حقه في الاقناع . والمؤرخ الذي يفسر التطور التاريخي المعقد الذي جعل الشعب الاميركي او الالماني او الاسباني او البريطاني او غيرها هو ما هو الآن ، يعمل عمل العالم ، ولكنه لا يكاد يضيف الى عمله هذا قوله بأن هذا التطور هو الذي جعل احد هذه الشعوب « أعظم شعب في التاريخ » حتى يطلق حكما ينطوي على تقدير قيمة . ولا ينكر ان جانباً من مهمة العلماء في بعض الموضوعات ينصرف الى تعليم الناس ان يصدروا احكاماً سليمة في تقدير القيم ، وان يقدّموا بين ايديهم امثلة عليها لدراستها . ولن يدخل في تصور احد ان يدرّس آداب اللغة الانكليزية على وجه يساوي بين مسرحيات شكسبير ونويل كوارد . ومهمة الاستاذ ان يبسط الحقائق عن الفئتين ثم ان يدمج الحقائق في رأي

يؤيد تأييداً قوياً ما اجمع عليه العلماء من ان مسرحيات شكسبير افضل. ولكن اذا رأت طائفة من التلاميذ، بعد الاطلاع على الحقائق، ان تؤثر مسرحيات كوارد على مسرحيات شكسبير، فليس في يده حيلة، فقد نهض بكل الواجب الملقى على عاتقه. ووراء كل خلاف خطير في عالم العلم تجد خلافاً على حكم في قيمة. فإذا ما بلغ الخلاف هذه النقطة، احنى العلم رأسه ولزم الصمت. ولن تسمع بعد ذلك سوى صوت واحد، هو صوت الفلسفة، فالعقل يتكلم به، وكل ما عداه صيحة عاطفية. اما العاطفة فخاصة بصاحبها، وهي عابرة لا تقيم، واما العقل فدائم.

ونحن في الجامعات الغربية نؤمن بالعقل، لانه دائم. وتاريخ البشر يثبت ان العقل غلب دائماً اولئك الذين يحاولون ان يقيّدوه او يقضوا عليه. وقد بذلت هذه المحاولة مرة بعد مرة، واخفقت كل مرة. وستبذل مرة اخرى، والواقع انها تبذل الآن، وسوف تخفق. إن حياة الروح تواجه خطرين كلاهما قوي وملحّ: اما الاول فهو خطر الكسل، واما الثاني فهو خطر الاستبداد. ومن الجائز ان يكون العالم المتحضر قد بلغ في سنة ٢٠٠٠ من الثروة والراحة والانصراف الى الملذات السخيفة مبلغاً يقضي على الفكر، او يحصره في فئة من المديرين والخبراء الدهاة. ومن الجائز ايضاً ان تنحط التربية فتصير تدريباً على عمل، وترويضاً على مناهج في الصلات

العائلية والاجتماعية ، وان تنهار الحياة فتغدو اياما متعاقبة متشابهة في بهجتها ، ويشمل كل يوم بضع ساعات من العمل الرتيب تليها حفلات مرحة في الخلاء وتسلية رخيصة . وهـذا كله ممكن ولكنه غير محتمل . بيد انه اذا وقع فالطاقة الكامنة في عقل الانسان لا بد واجدة منفذاً لها على الرغم من كل راحة وكل تسلية خفيفة . سوف ينجب مخترعون وباحثون ومفكرون ، مع انهم قـد يعدّون خلال بضعة قرون ، رجالًا ذوي اطوار غريبة ، ويكونون اندر من القديسين او الكبريت الاحمر . فتاريخ المعرفة حافل بسِيَر رجال على هذا الغرار ، وكل بحث خطير بدأ بفئة قليلة من الشواذ . ومن اغرب ما يبعث على الامل ان يطالع المرء تاريخ رجال العلم ، فيرى في الحين بعد الحين ، قيام فئة قليلة منهم يقبع احد افرادها في مكتب ، او يتمشى في حديقة ، او يطالع في مكتبة ، او يراقب ويجرب في معمل ، مكبّين جميعاً على الاهتمام بالاشياء التي لها قيمة ، يصونون عقل البشرية عن الموت ، وهم يفعلون ذلك على حين ترى الانسانية منصرفة الى حفلات باهرة او حروب إقطاعية لا تنتهي ، او يصيدون الايل مع الصباح ، او ينشغلون بالقيل والقال بعد الظهر ، وبحفلات الرقص الرسمية في المساء .

ومن الجائز ايضا ان تكون الكرة كلها في سنة ٢٠٠٠ قد خضعت لاستبداد شامل ، اكمل واشد من اشد استبداد

بلته حتى الآن في تاريخنا الطويل الحافل بالبشائع ، فان لم يكن استبداداً واحداً شاملًا فقد يكون بضع حكومات مستبدة متفرقة في مناطق .

وثمة في شؤون الناس اتجاهان او ثلاثة اتجاهات تميل بنا الى هذا الظن . اما الاتجاه الاول فهو القومية — الاعتقاد بان جماعةً ما ، جنسيةً او سياسية ، تفوق جميع الجماعات الاخرى ، وان هـذا الاعتقاد ينبغي ان يضخم ويرسخ في نفوس الافراد الذين ينتمون اليها . وقد اخذت قوة هذا الاعتقاد تضعف بعض الشيء في بعض ارجاء العالم ، اما في الارجاء الاخرى (وبخاصة بين الشعوب التي ظفرت باستقلالها منذ عهد حديث) فهو يشتد ويقوى سنة بعد سنة . وكم من رجـــل كان والده او جدّه يعدّ نفسه صاحب حانوت وحسب في البلدة الفلانية ، فإذا به اليوم يعد نفسه صاحب عقيدة ، وعلى استعداد لـكي يستبق الاسنة والرماح ليقاتل خصوم عقيدته ويستشهد ملتفاً برايتها المجيدة . اما الاتجاه الثاني فهو النزوع الى سيطرة الدولة ، والاعتقاد بأن جميع وجوه النشاط بين المواطنين ، او اكثرها ، ينبغي ان تسيطر عليها الدولة ، وان تركيز هـــذه السلطة العظيمة في ايدي الموظفين الذين توكل اليهم السيطرة ، لن تفسدهم . وهذا الاعتقاد آخـــذ في الانتشار انتشاراً سريعاً ، ولعله يفوق في سرعة انتشاره كل نظرية سياسية اخرى ، وغالباً ما يدافع عنه

مؤيدوه دفاعاً تكثر فيه الحماسة والاندفاع على قدر ما يقل فهم المخاطر التي تنطوي فيه . ولكم يطيب للمرء ، لولا الالم ، ان يراقب الذين يؤيدون دولة بلغت فيها « الاوتوقراطية » اشدها ، فيراهم يصفون انفسهم بوصف « الاحرار » ويعلنون ان رجاءهم معلق بتحقيق « حرية جديدة » . ولكن المؤرخين يعرفون ان هذه البواعث العاطفية تتكرر في التاريخ ، ويفهمون على اسف منهم ، ان الناس كانوا فيما مضى مؤمنين بحق الملوك الالهي ، وكذلك ترى بينهم اليوم من يجب ان يؤمن بأن قدرة علوية تعصم موظفي الحكومة عن الخطإ .

اما الاتجاه الثالث فهو التقدم في البراعة العلمية التي تيسر على الذين لا خلاق لهم ان يسيطروا على شعب كبير مستعينين على ذلك بأسباب خلقتها الصناعة الحديثة . فالآلات تزيد قدرة الانسان ، وقد كان لويس الرابع عشر يحيط الذين يريد ارهابهم بحرس شاكي السلاح ، اما اليوم فاخفاء « ميكروفون » في بيت ، وبضع ادوات اخرى ، كفيل بتحقيق المرام على وجه ايسر واجدى . وقد كانت الحرب العالمية الثانية ، حرب علماء الى حد بعيد ، واحتمال قيام استبداد عالمي النطاق في المستقبل خليق ان يكون استبداداً علمياً حقاً .

وكذلك ترى ان حكومة تقوم قياماً كاملاً على القومية واشتراكية الدولة ، ويسيطر فيها الموظفون على البحث العلمي

وتطبيقه في كل ميدان من ميادين التعليم ، خليقة ان تكون اضخم دولة مستبدة في تاريخ البشر . وقد تنبأ فريق من الكتاب الساخرين بقيام هـذا الطغيان ، وفعلاً قامت امثلة عليه هنا وهناك . فقد انشئ حكم من هذا القبيل في روسيا بعد الثورة البلشفية ، وحاول موسوليني وهتلر إنشاءه في ايطاليا والمانيا ، ولكن نجاحهما كان قصير الاجل . وقد وصف جورج اورويل في كتابه « ١٩٨٤ » قيام مثل هذه الحكومات المستبدة في ارجاء الارض خلال حياة الاحياء اليوم . اما الدوس هكسلي فقد تصوّر في كتابه « عالم جديد جريء » مرحلة تالية حيث تشمل السلطة المستبدة الارضَ كلها ، ويصير البشر في ظلها اقرب الى الحشرات في عقولهم ، ويعمد اصحاب السلطان الى اساليب التناسل والتوجيه التربوي في ذلك العالم ، لتقسيم الناس الى اربع طبقات ، او اربعة ضروب من نوع واحد ، يشق على الطبقة الواحدة منها ان تنشئ اتصالاً فكرياً بينها وبين الطبقات الاخرى ، ولكنهم جميعاً يتصرفون كالنمل في جحر ضخم محيطه ٢٥ ألف ميل ، فيتعلمون ويلعبون ويأكلون ويتناسلون ولا يفكرون مطلقاً . وان ديكتاتورية من هذا القبيل لمضطرة بطبيعة كيانها ، ان تسيطر سيطرة دقيقة محكمة على عقول رعاياها ، فتفرض فرضاً ما يسمح بطبعه في الكتب والصحف والمجلات ، وكل ما يؤذن في إذاعته او تلفزته ، او عرضه على المسرح ، او بالفلم . واما هتلر الذي قطع شوطاً بعيداً على طريق إنشاء هـذا

النظام ، خلال سيرته القصيرة في المانيا فقد قال : إن الصحافة هي سلاح قتّال في عالم العقل شأنها كشأن الطائرة في الحرب . وقد باهى بقوله : « ان الصحفي (النازي) اليوم يعلم انه ليس كاتباً وحسب ، بل هو رجل له رسالة مقدّسة هي الدفاع عن مصالح الدولة (النازية) » . والديكتاتورية مقضيّ عليها بأن تكبت كتب النقد التي من شأنها ان تشجع المعارضة ، ولا تكتفي بهذا بل تخفي الحقائق وتدمر الوثائق وتمنع البحث والتعليم في نواح معينة ، وتحاول ان تحيل الرجال المفكرين الى عبيد عقليين للدولة الكلية القدرة ، بدلاً من ان تسمح لهم بأن يطيعوا السيد الوحيد المقبول في العالم ، بعد الله ، وذلك السيد هو العقل البشري . وهذا كله كفيل بان يكون سبب كثير من الشقاء ، وان يبدد الطاقة الحية في النافع من الناس ، ويؤذي بلا ريب مصالحها هي ، بإنكارها على الناس ان ينتفعوا بأفضل قواهم .

ولا بد لها من ان تخفق آخر الامر . فليس في الوسع ان تجرد الناس جميعاً من إنسانيتهم ولا بد من ان يبقى هنا وهناك من يفكر . وفرض على الفئة الحـــاكمة نفسها ان تمضي في التفكير . ومع كل جيل من المواليد ، يظهر مفكرون . وإنه لايسر ان تدمّر البشر تدميراً مادياً ، بجرثومة او انفجار من ان تدمّرهم تدميراً عقلياً . فالناس ضعاف يصيبهم الذعر وتتقلب عليهم ادوار الصحة والمرض والعاطفة ، ولكنهم

يحسنون الملاءمة لوضعهم ، والملاءمة تعني القدرة المتصلة على التغيير ، وتنمية قوى عقولهم . فقد خرجوا ، خلال بضعة آلاف من الاجيال ، من الادغال والكهوف ، بالفكر واحداث التغيير اللازم . وما دام الناس يعيشون على هذه الكرة ، فلا بدّ لهم من ان يتصل تفكيرهم ، ولن تثنيهم عن التفكير أيّة دكتاتورية مهما بلغت من التحكم ، ولا اشد الوان القسوة التي يبتكرها بعضهم ، ليكيد بها للبعض الآخر .

سعادة عميقة لا قرار لها : سعادة التفكير ، والبحث عن المعرفة من اجل المعرفة نفسها . ونحن ننفق شطراً كبيراً من حياتنا في حل مشكلات تواجهنا او لتجنب الم ٍ مباشر او لجلب فائدة معجلة . ان جانباً كبيراً من تدريبنا موجه الى الحصول على نتائج علمية — تصميم آلات ٍ وادارتها ، شراء وبيع ٌ وطبخ ٌ وتأثيث ٌ وتثمير ُ أموال ٍ وإنفاقها . والنتائج النافعة التي نظفر بهـــا من اللجوء العمد الى وضع الخطط والتفكير المباشر ، تبلغ مبلغاً يصرفنا عن تلك السعادة الحقيقية التي لا قرار لها ، والتي تنبع من المعرفة الصافية . وقد ذاقها كل منا . فهي تولد في الاطفال ، وتذهب معهم الى المدرسة ، وما اكثر ما يقتلها هناك المعلمون « العمليون » . ولكنها تبقى حية في بعضهم ، وتدوم مباهجها مدى الحياة ، حين لا تبقى مباهج اخرى . ما اجمل ان ينفق المرء خمسين سنة او ستين يدرس هياكل الاسماك ، او الصلة بين المنطق

واللغة ، او تاريخ الانكا ، او الهندسة غير الاقليدسية ، او آداب اللغة الاسلندية ، او تشريح الدماغ . ان الحصول على معرفة جديدة في احد هذه الموضوعات وتدوينها وتنظيم ابوابها ، دون حرص على إفادة البشر الا بتوسيع نطاق فهمهم ، لهو خير نهج لحياة سعيدة نافعة ، يغلب عليها عند ختامها شعور الاسف بأنها لن تمتد خمسين سنة اخرى ، حتى يزداد المرء معرفة على معرفة . هذا هو ينبوع اعظم رضىً متاح للانسان وأصفاه ، الا ان يكون عمل الفنان المبدع ، او الطبيب الذي يبرئ المرضى . وهو علاوة على ذلك ، كما قال ارسطوطاليس ، مشاركة في عمل الله نفسه — حياة التأمل الخالدة على الدهر .

الفصل الرابع

الحدود المتأصلة في العقل

ليس الناس بآلهة ، ولا فيهم من الآلهة مشابه ، سوى في لمحات — ينكشف فيها لعيونهم شيء قليل من الحقيقة ، او يصنعون فيها شيئاً قليلًا من المعروف والخير . في الناس نقص عن الكمال وقصور . ومن الناحية الاخلاقية ، ترى جميع الديانات تبدأ بفرض مؤداه ان الناس بعيدون عن النجاح ، واما الناحية العقلية ، فترى جميع الفلاسفة فيها متفقين على ان الناس يخطئون كثيراً وانهم ضعاف دائماً .

وكثيرون من الذين اطالوا النظر في العقل البشري ظفروا بمنزلة في التاريخ لانهم كانوا على ريب من قواه . وفي هذه الجماعة تجد البرتغالي فرنشسكو سانشيز الذي نشر سنة ١٥٨١ كتاباً ممتازاً جعل عنوانه عبارة بسيطة ترجمتها : « ليس في الوسع ان تعرف شيئاً » ، ومنها ايضاً الاديب المعتدل الفكه ميشيل ده مونتاني الذي انفق سنين طوالاً من عمره يحاول

ان يفهم كنه نفسه، واتخذ الميزان رمزاً لتفكيره، وعبارة «من يعرف؟» شعاراً له. وعلى هـــذا الغرار ايضاً ذلك الضابط الروماني الذي سأل السيد المسيح احد الاسئلة القليلة التي لم يُجب عنها، فقد استجوب المسيح ووجده بلا ذنب، ولكن ساعة قـــال المسيح انه ولد «ليشهد للحق» سأله بيلاطس البنطي: «ما هو الحق».

نقص الحواس والعقل

ليس في وسع احد ان يفكر تفكيراً مجدياً ان لم يعترف بما في العقل من حدود متأصلة في تركيبه. فحواسنا قليلة ومداها ضيق، وليس بينها سوى حاستين (البصر واللمس) تساعداننا حقاً على توسيع نطاق معرفتنا. ففي جميع ارجاء العالم تقع حوادث خطيرة او ممتعة ولكن حواسنا لا تنقلُ انباءها إلينا، او هي لا تستطيع. ان الامواج وتيارات الطاقة لا تفتأ تنساب فيما حولنا، وحتى في اجسامنا، ونحن لا نراها ولا نسمعها او نشعر بها. وفي طليعة اغراض العلوم ان تمدّ نطاق حواسنا المحدود بصنع عيون قوية نرى بها، او بتحويل الظواهر التي لا ترى ولا تسمع الى حوادث في الوسع سماعها ورؤيتها.

واهم من ذلك شأناً ان تركيب عقلنا نفسه محدود. ومن البيّن ان عقول الناس تتفاوت ضعفاً، فثمة عقل لا يستطيع

ان يدرك الرموز ، وآخر تعوزه الذلاقة في التعبير . ولكن كل عقل بشري محدود حداً قوياً . وهذه الحقيقة هي جوهر فلسفة عمانوئيل كانت ، فقد بيّن – بياناً معقداً ولكنه بيان حاسم – ان العقل البشري مقسور بحكم تركيبه ان يرتب ضروب خـــبرته بطرق محدودة ، تنتظمها صور معينة من الزمان والمكان ، مع ان تيار الحوادث نفسه قد تنتظمه صور اخرى مخالفة ، اذا ما خبرته عقول اخرى . ونحن لا يسعنا ، طبعاً ، ان ندخل في نطاق خبرتنا سوى جزء يسير من تيار الحوادث بكامله .

استحالة أنواع معينة من المعرفة .

ثم هناك انواع ذات شأن من المعرفة ، هي بطبيعتها ناقصة او مستحيلة . فمعرفتنا بذواتنا هي دائماً معرفة ناقصة . ومعرفتنا بالامور الالهية ، هي دائماً معرفة قاصرة .

وقد مضت قرون انصرف فيها عدد من الرجال والنساء ذوي الفطنة والتبصُّر الى دراسة انفسهم وغيرهم من الناس في ميادين التربية والدين والسياسة والآداب والحياة الاجتماعية وغيرها من ضروب الدراسات النفسية . وقد كادوا يجمعون على ان معرفة عقول الغير تكاد تكون من المستحيل ، وانه من اشق الامور على المرء ان يفهم عقله هو . وليس في وسع احد منا ان يتنبأ بما قد يفعله اقرب اقاربه ، او هو

نفسه ، في المواقف الحرجة . وليس منا من يستطيع ان يقدّر نمو عقله وخلقه في المستقبل . والتاريخ السياسي ، اذا نظرت اليه من ناحية معينة ، الفيته سلسلة من التقديرات الخاطئه ، والمفاجآت التي ُتذهل النفس وتصدمها . ان معرفة نفسية الجماعة شيء عسير الى حدٍّ يثير السخط ، واما معرفة نفسية الفرد فتكاد تكون مستحيلة . وليس ثمة ريب في ان علم النفس خليق ان يتقدم في المستقبل تقدماً كبيراً وباعثاً على الرضا كتقدم الطب خلال القرون الخمسة الاخيرة . لسنا ندري ، ولكنه حتى الآن لا يكاد يعرف شيئاً عن الوان نشاط العقل .

وعلى ان معرفة ما وراء الطبيعة أخطرُ شأناً فانها تساويها مشقة . وقد تيسّر امرها على بعضنا بما كشف الله عزّ وجل منها عن طريق وسيط او رسول . وحتى هذا الكشف محدود النطاق ، فهو لا يبين لنا شيئاً عن مسائل تهمّنا بوجه خاص وتبرز امامنا متى بدأنا نفكر . ولعلنا لا نجد اكثر من مئة إنسان في تاريخ البشر تمكنوا من ان يدركوا كنه « الوقت » . وقليلون هم الذين نفذوا الى اعماق العلاقة بين الجسد والروح ، او استطاعوا ان يفسروا طبيعة الموت . اما طبيعة الله ، عزّ وجل ، فهي تكاد تكون بحكم تعريفها شيئاً لا يدرك ولا يعبّر عنه — الشيء المطلق . فنحن نعرف « أنَّ هناك » ولكننا لا نعلم « ما هناك » .

امقضيٌّ علينا حتماً بالجهل الذي لا ينجلي ؟ الا يستطيع العلم ان يسير بنا الى الادراك الكامل ؟

كلا . ففي ارجاء العالم اناس – ومنهم علماء – بلغت منهم السذاجة مبلغاً حملهم على الاعتقاد بأن جميع المشكلات تعنو للعلم فيحلها ، ان عاجلاً وان آجلاً . وكلمة « العلم » نفسها اصبحت صيحة غامضة تبعث الثقة ، ولكن معناها مبهم وان كانت ذات زخم عاطفي قوي . ولفظ « العلم » يطلق الآن على اشتات موضوعات لا يصلح لها ، ويتخذ ستاراً للتفكير في عشرات من الموضوعات ، تفكيراً تعوزه الدقة والشمول . ولكن ، حتى اذا اخذنا العلم ، بأدق ما وضع له من تعريف ، لم يكن لنا بد من التسليم بأنه ناقص ، شأنه كشأن جميع ألوان النشاط في العقل البشري .

ولن تجد شيئاً اسمه « العلم » ، بل هناك علوم ، وهي اقسام للمعرفة كل منها استقام امره بطريقة خاصة . وهي قلما تتفق ، وفي موضوعات كثيرة ، يندر ان تلتقي او ان يكون ادماجها في كلٍّ منسجم شيئاً ممكناً . والناس الذين يستطيعون ان يدركوا من العلوم قدراً يتعدى بسائطها هم قلة . وليس بينهم من جمع كل معارفهِ في صورة كونية واحدة . قد يتم ذلك في المستقبل ، لان الجانب الاكبر من

العقل البشري لا يزال مهملاً، وبخاصة لان قدرته على ان يجمع ويركب، قـــابلة للنمو الزاخر. وحتى اذا تحقق كل هذا، فإنه يحتاج الى مجهود عقلي قل بين الرجال والنساء من يقدر عليه. ان العلوم تنقل الى عامة الناس حقائق، ولكن إدراك كنه الحقائق يحتاج الى رجل عظيم.

ايتها الزهرة النابتة في شق الجدار

انتزعك من الشق

احملك في يدي، جذرك وكلّ شيء فيك،

ايتها الزهرة الصغيرة — لو كان في طاقتي ان افهم

ما أنت؟ جذرك وكل شيء فيك؟ وفي مجملك؟

لقدرت ان اعرف ما الله، وما الانسان.

***

وهذه المعرفة من وراء العلم — ومن اشد بواعث التواضع ان يمشي المرء بين رفوف الكتب في دار كتب جامعية كبيرة. ها هي ذي كتب تعدّ بالمئات، بالالوف، بمئات الالوف، رفٌ وراء رفٍّ، فوق رفٍّ، وسيل جارف من الكتب لا ينقطع، وهذه الكتب الجديدة تزاحم الكتب القديمة،

فتدفعها الى الانزواء في مؤخرة الرف او في غرفة في اسفل الدار . لن تجد احداً من البشر قد طالعها جميعاً ، وليس في وسع احد ان يطالعها ، او ان يتمكن من نصف الموضوعات التي ألفت فيها . علم الاجتماع ، اللهجات الفارسية ، تاريخ المسرح ، الكيمياء الحيوية ، فلسفة القانون ، علم الهزات الارضية ، علم الضوء ، نظرية المصارف ، علم الفيزياء الفلكية ، الدين المقارن ـ كشف من الموضوعات يبعث على الاعجاب ، ويثبط الهمة . وما كان في وسع احد ان يزعم انه يعرف كل ما يعرف ، وان ينشيء منه نظاماً محكماً سوى في العصور الواثقة بكل شيء ، كمثل القديس توما الاكويني في العصور الوسطى ، وارسطوطاليس ، « سيد العارفين » ، واحكم البشر في يونان القديمة . ولكن تلك المعرفة كانت على افضل تقدير ، رجاء وحسب . اما اليوم فقد صارت شيئاً مستحيلاً . وما ان يسير المرء بين رفوف الكتب ، وينقل نظره بين الكتب ذوات العنوانات الجريئة المجزية ، حتى يتمنى تمني العالم او تمني القديس ـ فيبتهل الى الله ان يطيل حياته على الارض ، متجاوزاً عن الخلود في الآخرة .

ولكن ذلك كله لا يكفي . الكتب نفيسة ولا ريب في قيمتها ، وهي علمية ، ولكن كل انسان يعرف ، حتى مؤلفوها يعلمون ، انها ناقصة . وكل عمل من اعمال العقل هو عمل قاصر . وفي سعينا الى فهم العالم وحياتنا وأنفسنا ، ليس ثمة مفرّ من

احتياجنا الى اساليب اخرى ، وهي اساليب تفوق في اكثر الاحيان اي شيء تسبغ عليه صفة العقل .

الخبرة من وراء المعرفة

كل رجل مهما يكن بليد العقل ، سقيم الخيال او مهما تكن حياته محكمة النظام مسيّرة باحكام العقل ، يُلفي نفسه عرضة لالوان من الخبرة او الادراك تتدفق عليه من مصادر وفي مجار ليس لها صلة بالعقل . وهي خبرة زاخرة القوة ، وتعد جزءاً من فيض الحقيقة الكلي ، بيد انها لا يمكن حسبانها « معرفة » بمعناها المقبول . فهي واقعة وراء حدود المعرفة والصوفيون لا يفتأون يعلنون هذا ، اما الفنانون فيعرضونه لنا في اشكال وألوان رائعة ، يشق على العقل ان يدركها . وهذه الحقيقة هي سر الموسيقى او جوهرها . انها ملك كل منا ، ولكننا كثيراً مـــا نخفيها عن انفسنا – في البلاد الغربية على الاقل .

وهي تتجلى على اوضح وجه واقواه في الموسيقى . ان الجلوس في غرفة هادئة عند المساء ، والاستماع الى اربع آلات وترية تتحدث فيما بينها في مجموعة متباينة عجيبة من الكلمات والاصوات ، التي تضحك وترقص ، وتبكي وتحزن ، وتجادل جدالاً نشيطاً ، او تتنافس تنافساً ملحاً ، ولكل منها كيان مستقل ولكنها مع ذلك تستمتع بحياة مجتمعة متآلفة ، ليبين

لك ان شطراً كبيراً من خبرتنا ، وجانباً من افضل ما يدخل في نطاقها ، يقع وراء حدود المعرفة . وعلى هذا الغرار ايضاً ان تجلس في بهو كبير للحفلات الموسيقية ، وان تسلم نفسك مع آلاف آخرين للنشاط الزاخر المتدفق من روح بتهوفن ، وقد انبعث انبعاثاً عجيباً في تيار متحرك من النغم المنطلق من خمسين آلة موسيقية ، فتتغلب خلال نصف ساعة على الوقت والتغير . او ان تجلس وحدك – ولعل هذا افضل ما يمكن – الى البيان وتعزف عليها احد الحان باخ ، وان تحس ذلك العقل الهادئ النفّاذ ، يتكلم في اصابعك انت ، ناطقاً بحقائق يعجز المرء عن ان يبلغها وحده ، ومروضاً نفسك على اعمق التأمل واسمى السكينة .

نعم ، لجميع الفنون معانٍ ، ومعانيها لن تدرك بالتفكير المنطقي . فالقصيدة الجيدة ، والمسرحية البارعة ، وحركات الراقص او الراقصة ، لا تفسّر . ان الياباني الذي يصور غصن صنوبر تعلوه طبقة كثيفة من نثار الثلج ، والمكسيكي الذي يحوّل قطعة من حجر الى مثال رب مهول ، إنما يعلن رأياً في الكون ، وإن كانت ترجمة هذا الرأي الى شكل عقلي ، شيئاً متعذراً . فالاساطير العظيمة في كل ثقافة هي آراء في الكون ، من هذا القبيل ، وكذلك الشعائر التي تصحب الاساطير في اغلب الاحيان . فهي تفرغ الشيء الذي يقع خارج نطاق العقل في قالبٍ وتسبغ عليه سلطاناً ، وهو ما وصفه الشاعر الرقيق هودجسون في صورة بارعة قال :

للعقل اقمار، ولكنّ اقماراً
غير اقماره تنعكس على مرآة البحر،
فتحيّر علماء الفلك
ولكنها تبهجني.

والخبرة من وراء المعرفة ينالها كل امرئ في زمان ما من ازمنة الحياة، من مصدرين عريقين اصيلين هما النشاط البدني وحب الطبيعة. فطائفة من اقدم الصور التي عثرنا عليها تظهر الناس في جماعات يرقصون ويصفقون ايديهم، حتى ليكاد المرء ان يسمع قرع طبولهم، متخطياً خمسين الف سنة تفصلنا عنهم، واذ يحدق فيهم يحس ان قلبه قد اخذ يخفق خفقانا مطرد الايقاع واقوى. والشعراء العظام كانوا يحبون البحر ويسبحون ساعات متوالية على شاطئ صاخب، او يركبون غاربه في زوارق صغيرة، فيحسون الريح والامواج قد صارت جزءاً من كيانهم. والحكماء السعداء احبوا الجياد، ونالوا فرحة عظيمة في امتطاء صهواتها ساعة بعد ساعة في دروب الغابات، يخيم عليهم الصمت، ولكنهم يستشعرون دون انقطاع بحقيقة لا يمكن التعبير عنها. وخلال عصور التاريخ، منذ ان انبت الله، عز وجل، الحديقة الاولى، احببنا الاشياء التي تنمو وضروب الحيوان والطير وفهمناها، واجللنا العواصف والمد والجزر والمطر وضياء الشمس وحاولنا

ان نفهمها . فاصغر الاشياء في الطبيعة تقف على قدم المساواة مع اعظمها فيما تنطوي عليه من عجب ومعنى . ان النظر الى الطائر المعروف بزمج الماء يركب متن الريح ، او الى فراشة تحاكي ورقة ، او الى نهر ينحدر في هاوية ، لخبرة نفسية عميقة . وهناك رجال كثيرون ، ادركوا في آخر الأمر ، انهم يستطيعون دون الاستعانة بالعقل البشري ان يفهموا طائفة من اعظم اسرار الكون ، اذ يجلسون وحدهم ، بعد تصعيد يوم كامل في الجبال ، حول نار موقدة ، على سفح جبل كالح ، ثم تأخذهم سنة النوم على جسد الارض الضخم ، تحف بهم نسائم القنن ، حتى اذا اسفر الصبح رأوا الشمس تشرق في علاها ، كما فعلت يوم الخليقة .

واخيراً هناك ناحية اصيلة من نواحي الخبرة ، تقع على الاكثر وراء نطاق الادراك العقلي ، وهذه هي ناحية الاخلاق والدين . فقد انبأنا المعلمون العظام مرة بعد مرة ان الحكمة والصلاح ليسا شيئاً واحداً ، وان حقائق الدين لن تدرك بالعقل ، وقد اهملنا ما علمونا اياه مرة بعد مرة ، فنرى رجالاً ونساء من ذوي الادراك ، لا يفتأون يحاولون افراغ الاخلاق في معادلة رياضية او صيغة قانونية ، وان يقضوا على « اباطيل » الدين بأن ينكروا على المتعبدين حق العبادة ، فكانوا ينتهون دائماً الى انسحاق قلوبهم ، ثم الى جثوّهم على ركبهم متضرعين ، كما جاء في قصيدة براوننغ عن الكاهن الطموح :

وإذ نحسُّ بأننا في حصن حصين من الامن ،

يمسُّنا مشهد غروب ،

او خيال من كأس زهرةٍ ، او موت احدٍ من الناس ،

او نهاية نشيد لأوربيديس ،

وحسبنا ذلك ، ليثير فينا خمسين لونا من ألوان

الرجاء والخوف ، عريقة وحديثة في آن ، كالطبيعة نفسها ،

فتنقر ، وتقرع النفس ثمَّ تدخلها ،

وتتشابك ايديها ، وترقص هنا ، حلقةً غريبة

حول َصنَم قديم ، قائم مرةً اخرى على قاعدتهِ

ـــ قاعدة « لعلَّ » العظيمة

وهذه الحقيقة هي احدى الحقائق التي جاء السيد المسيح ليشهد لها . فمن المفيد ان يتتبعه المرء في جداله مع اهل العقل وذوي الفطنة من اهل عهده ، وهو يتبع الحجة القوية بمثلها ، وقد توافدوا عليه ، ولم ينقطعوا ، يوجهون اليه اسئلة صعبة ، يساورهم الرجاء ان يثبت في اجوبته انه جاهل بالنصوص الدينية (وخاصة ما كان له صلة بدقائق الشعائر والشريعة)

او انه منكر للاخلاق . وكان هو يكر عليهم احياناً بأسئلة عسيرة فيعجزون عن الرد عليها ، ولكنه كان على الاكثر يحلق فوق ما يورطونه فيه ، على اجنحة قولٍ نبيل بسيط صوفي ، فيخرسهم القول ويصبح بياناً خالداً لحقيقة لا يمكن ان يدركها المرء اذا استعان بالعقل وحده .

وثمة قصيدة نثرية قصيرة غريبة كتبها فرنسي مشهور ، وجعلها دعاء اوحته اليه وقفته على الاكروبليس ، قلعة مدينة اثينا ، وقد وجهها الى الربة اثينا التي يتجسم فيها العقل الهادئ . اما الكاتب فهو ارنست رنان الذي نشأ في الكهنوت الكاثوليكي ، ثم تركه . وقد كان فقيراً ، طموحاً ، مجتهداً ، فطناً ، فرفع نفسه الى اعلى طبقة من العلماء في القرن التاسع عشر ، وتوفر على دراسة لغات الشرق الادنى وتاريخه .

فقد كان رنان من المؤمنين بالعقل وألّف كتابه في تاريخ المسيحية واحوالها ، ليقضي على الوهية السيد المسيح ، ولينكر ان المسيحية دين عالمي ، وان التاريخ الروحي للعالم اليهودي المسيحي انما هو سلسلة من المغامرات العاطفية ، وان شأنها اقل كثيراً من عمل العقل البشري عملًا متصلًا . وفي قصيدته « دعاء على الاكروبليس » يعرب رنان عن ايمانه بالعقل البشري ، ويمجده ويرفعه الى مرتبة الالوهية ، وينظر الى العالم ، في عصره ، على انه كتلة من الوحشية والسخافة ، ولن ينقذ نفسه الا اذا عاد الى عبادة العقل .

ولكنّ رنان لم يقف عند هذا الحد، بل تعداه، فتراه يعترف وهو في هيكل العقل الذي عدت عليه عوادي الزمان، بأنّ العقل لا يكفي، ويعلن انك لن تجد فلسفة واحدة او عقيدة ما، هي الحقيقة المطلقة في ذاتها – ولو انها وجدت لغلبت كل منافس لها. لا يبلغ شأوها من الكمال، فتبقى هي وحدها. ولكن العالم بلغ من الكثرة والغرابة مبلغاً يجعل فهمه والسيطرة عليه امراً صعباً حتى على العقل. وهنا ينتهي الدعاء، بروح من الريب المتشائم، بدلاً من روح العجب والرجاء الذي استعان به آخرون (ولم يكن الاغريق انفسهم الذين قدّسوا العقل اقل استعانة به) في مواجهة الكون. ولكن رسالة الدعاء هي رسالة صحيحة. فقد بلغت الخليقة والخالق وخلائقهما، مبلغاً من التنوع والعجب، يعجز العقل عن ان يدركه إدراكاً كاملًا. ومن المستحيل ان تحسن الانتفاع بالمعرفة ان لم تسلّم بحدود قدرتها.

الفصل الخامس

الجبار المصلوب

في الفكر الاغريقي، تجسيد آخر للعقل (غير اثينا) تظهرنا عليه مأساة رائعة مدارها جبّار مصلوب اطلقوا عليه اسم برومیتیوس: «الذي ينظر الى امام»، «البعيد النظر»، «الباحث». تراه في مستهل الدرامة، يسمّره الى رأس صخرة في جبال القفقاس القاحلة، وحشان يمثلان القوة والعنف، فقد ندبهما، الكائن الاعلى، زفس او الاله، الى انزال العقاب ببروميتيوس لانه بحث عن اسرار اراد الاله ان تبقى سرّاً مختوماً، ولانه اباح ما كشف منها للناس من اجل خيرهم. وهو كأيوب تحت مسوح رماده، يعلن اعلاناً حازماً لا ينثني، انه يأبى ان يقبل عذاباً لا يستحقه، وانه لن يستسلم، وان الاله ظالم. فيزوره — في الدرامة — آخرون ممن حلّت بهم قسوة الاله ونقمته. واخيراً يُعرَض عليه الوئام اذا خضع للاله ووعده بمساعدته على الحكم. فيأبى. واذا الارض

تنشق فيهوي فيها البطل المصلوب ، الى عذاب اشد ، الى نار الجحيم الابدية .

ومع ذلك فالاسطورة لا تنتهي عند هذا الحد ، ومما يؤسف له اشد الاسف ، ان المأساة التي كتبها اسخيلوس وعنوانها « بروميثيوس المقيد » قد ضاعت ، ففي مكان ما في القرون المظلمة التي كانت نهبـــاً للحرب والهمجية ، فقدت النسخة الاخيرة من هذه الآية الادبية الرائعة ، مزّقها لصّ خائب ، او حرقت في مكتبة حل بها الخراب ، او ابتلعتها — كما ابتلعت بطلها — زلزلة مدمّرة . ونحن نعلم ان الشاعر ، انتهى بعبقريته العلوية ، الى وئام نهائي بين العقل والاله — بين بروميثيوس وزفس . وحيث تجد العقل قـــد عجز عن الالتئام مع القوى الاخرى التي تتكون منها الحقيقة ، فهناك المأساة ، وهذه هي المأساة التي تمكن اسخيلوس من حلّ عقدتها ، كما حلـّها الشاعر في ختام سفر ايوب . وليس في وسعنا الآن ان نعرف كيف تمكن اسخيلوس من بَعث الحقائق الاسطورية ودمجها بعضها في بعض ليظفر بالحـل ، الذي توخّاه . ولكن الشيء الوثيق ، هو انه اصطنع من تنافر بادٍ لا حد له ، بين المعرفة وسائر انواع الخبرة ، تآلفاً رائعاً كالتآلف الذي تظفر به الارواح الخالدة .

فان لم نبذل نحن الجهد اللازم يظل هذا التنافر قائماً ولا ينتهي . ان للمعرفة قيمة لا تقدّر ، فالفكر هو سر انسانيتنا ،

ومع ذلك فالفكر والمعرفة قاصران ، واذا اعتمدنا عليهما وحدهما وحسب ، فلن نبلغ كامل انسانيتنا . ولا بد للبحث والاستكشاف من ان يمضيا في دفع حدود المعرفة الى ما وراء نطاق الحس ، والى الاعماق الخفية ، في الماضي ، او رحاب الكون ، او عقول الناس . ومع ذلك فلن يكون في وسعهما ان يفهما شيئاً ما فهماً كاملاً ، او ان يكونا اكثر من عنصر واحد بين العناصر التي تكوّن خبرتنا . اما الحد الاخير للمعرفة فيلخص في كلمات احد فلاسفة القرون الوسطى ، قال :

جميع الاشياء تنتهي الى ألغاز .

الجزء الثالث

تاکیس

الفصل الاول

الضرورة

ان العقل ، على ما يحيط به من حدود ، وينطوي فيه من مخاطر ، لا يزال قوة لا غنى عنها من قوى الانسان ، ولكنه ليس سر كيانه الاوحد . فالانسان ليس آلة تفكر ، وينبغي له ألاّ يحاول ان يصير . ولا هو حيوان مفكر ، فهو اكثر من ذلك كثيراً ، اعظم واشد تعقداً. يقول اعظم الشعراء : « ما انبله في عقله وما اكثر مواهبه » . ثم يضيف عبارة من عباراته التي لا تجارى ولن تنسى : « انه جوهر التراب » . بيد ان التفكير نشاط واحد من وجوه نشاطٍ تلازمه وتصيّره انساناً . فليس له من التفكير مفرّ .

يلازم التفكير جميع الرجال والنساء ، ليل نهار ، من الطفولة الى الشيخوخة ، في الصحة والمرض ، في النوم واليقظة . فالدماغ يعمل كما يعمل القلب ، ينبض نبضاً لا ينقطع . في انسجته التي تزن ١٤٠٠ غرام ، تسجل وتخزن بلايين على

بلايين من الذكريات ، والعادات ، والغرائز ، وضروب القدرة والشهوة والرجاء والخوف ، صور وألوان واصوات ، وحسابات تفوق التصوّر في دقتها ، وحوافز ملحة وحشية غير مصقولة ، صوت همسة سمعت من ثلاثين سنة ، قرار حازم يطبعه في الذهن التطبيق اليومي خلال خمسة عشر ألف يوم ، البغضاء التي لم يزل يحتفظ بها منذ الطفولة ، والبهجة التي لم ينلها ولكنه لا ينفك يتخيّلها ، التقديرات المعقدة لألوان الضغط المختلفة في تركيب جسر ، ومقدار الضغط الذي توقعه إصبع واحدة على وتر واحد ، تطوّر اللعب في عشرة آلاف مباراة شطرنج ، والخط الدقيق المنحني الذي ترسمه شفة او أكمة او معادلة رياضية او كرة طائرة ، ظلال من الانغام والظلال ، والكآبة والنشوة ، وجوه اغراب لا يحصون ، عطر حديقة ، صلوات ومخترعات وجرائم وقصائد ونكات وألحان وارقام ، ومشكلات لم تحل ، وانتصارات عفّى عليها الزمن ، الخوف من الجحيم ، ومحبة الله ، مشهد نصل عشبة في الحقل ، ومشهد السماء ترصعها الكواكب .

ما اغرب ان تكون مستيقظاً وان يتاح لك ان تراقب رجلًا نائمًا . فمن النادر ان يستطيع النائم متى استيقظ ان يتذكر شيئاً مما حدث له في نومه . فكأنه الجزء الميت من حياته . ولكنك تدرك وانت تراقبه انه حيّ ، وان الفكر كان جزءاً من هذه الحياة . فقد كان جسمه يتحرك ، وجفونه

ترفّ ، وعيونه ترى صوراً متحركة في الظلام ، وكانت اعضاؤه ترسم خطوطاً في حركتها ، لان ما رآه في نومه كان يرشد خطاه في حشد من الناس ، او يزيّن له انه يشهد سباقاً ، او ملاكمة ، او قنصاً او رقصاً . لقد افترّ ثغره عن بسمة لطيفة ، او بدا عليه انه قلق ، او تقلب غضباً من جنب الى جنب ، ولعله احياناً يصرف اسنانه (كما كان بيرون يفعل) سخطاً ، ومع ذلك فهو نائم . او لعله يتكلم احياناً في صيحة لا تكاد تكون مفصحة ، او في همهمة خفيفة تبدو لعقله كأنها صيحة قوية . قلبه يشتد خفقاناً لحماسة ، او يبطئ في قنوط . انه يعرق . لقد احس مرور الوقت فهو يعد نفسه للصباح وما فيه من ضوء وضجيج . وخلال ذلك كله لا ينفك يفكر — تفكيراً غامضاً عاطفياً ، اذا كان ذا عقل لم يصقلهُ التدريب ، او تفكيراً قوامه الرموز والحيوانات او الآلهة ، اذا كان من الناس الذين لا يزالون على الفطرة البدائية . انه يفكر ، آناً يتذكر ، وآناً يقدّر المستقبل ، وفي احيان كثيرة لا تكاد تحصى ، يتخذ وهو نائم قرارات معقدة حازمة في موضوعات صعبة ، تصحبه من حياة اليقظة الى حياة النوم . يقول لك : « انا لا احلم ، بل أنام وحسب » ولكنه يستيقظ وقد سُجِّل تفكيره خلال ثماني ساعات من النوم ، على صفحة عقله ، كما تبيضّ شعرة من شعر رأسه او تنقبض عضلة من عضلات كتفه . قد يطلق على ما حصل وصف « الرؤيا » او « العزيمة » او « النزوة » . ولكن أيّاً كان الوصف فهو فكر ، اشتغل بـه عقله وهو

نائم ، كما كان قلبه يخفق ، وغدّته الحلوة تفرز عصيرها الهاضم . فالإنسان يفكر ، مستيقظاً ونائماً . وقد يبدو احياناً ان الفارق المقدم بين القوي والضعيف من الرجال ، منطوٍ في القدرة على إخضاع الافكار وتوجيهها ، فالرجل الحكيم الزاخر النشاط ، يلتمس الوسيلة لاستعمال عقله ، ولا يكفّ إذا ران النوم على جسده ، واما الضعيف السقيم فيستسلم للاحلام خلال نصف حياته ، وإن كان مفتّح العينين . وكل رجل من رجال الاعمال يعترف بهذا ساعة يقول : « هذا قرار صعب ، سأنام عليه » . وقد كان بوانكاريه الرياضي العظيم يعرفه ايضاً أصدق معرفة ، فكان قبل ان يأوي الى فراشه يكتب اصعب المسائل الرياضية التي عرضت له . وكثيراً ما كان يجدها قد حلّت عند اليقظة ، بعد ان استوضحها خلال الليل عقله الذي لا ينام .

فالناس يفكرون ، ليل نهار ، طوال حياتهم . انهم يفكرون كما يتنفسون ، فهذه طبيعتهم ولا رادّ لها . فمن الاجرام في الحالين ان تحبس عنهم افضل مادة للتفكير ، وان تحول بينهم — بغير سبب عادل — وبين الصحة والحرية والحياة . وواجبهم نحو انفسهم ، يقتضيهم ان يفكروا كأزخر ما يكون التفكير واغنى ، وان يروّضوا عقولهم ويستمتعوا بها كما يروضون ابدانهم ويستمتعون بها ، حتى يصيرا كلاهما — العقل والبدن — وحدة متآلفة هي حياتهم .

يميل علماء الانسان في الحين بعد الحين الى الاعتقاد بأن المقارنة بين مجتمع وآخر امرٌ مستحيل ، وبخاصة اذا وصف مجتمع ما بأنه مجتمع متفوق ، وآخر بانه منحطّ . ولكنهم مع ذلك يوافقون ، كما نوافق نحن ، على ان الشعب الذي يموت اطفاله في طفولتهم ، أو يتدرجون نموّاً على ضعف ومرض ، هو شعب منحط جثمانياً بالقياس الى شعب يعيش اطفاله ويشبون وينعمون بحياة طويلة سليمة . وعلى هذا الغرار ، ليس ثمة شك في ان الشعب المتفوق هو الشعب الذي يستعمل عقول افراده ، ويتيح لهم تياراً لا ينقطع من الافكار الحافزة ليفكروا فيها ، ويضمن الوسائل التي تجعل الحصول على المعرفة متاحاً لجميع طبقاته بغير نظر الى جنس او لون او طبقة او دين او فقر ، ويحفز الناس الى ابتكار الافكار الجديدة ، ويحترم الذين يدوّنون المعرفة وينقلونها ، ويبقي الطرق مفتوحة لتبادل المعرفة داخل حدود البلاد ووراء حدودها ، مكاناً وزماناً . ان الشعوب التي سارت على هذه الخطة كانت قليلة — اقل مما يجوز . ونحن نعجب بأثينا الجمهورية ، وروما الاغسطينية ، وايطاليا في عهد النهضة ، وفرنسا وانكلترا وألمانيا في القرن التاسع عشر لانها كانت تشجع المعرفةَ وتبادُلَ الافكار وتلاقحها . ومع ذلك يؤسفنا ان نذكر حين نتصفح عصور التاريخ كيف عاش ملايين من الناس وماتوا ، وقامت مئات من المجتمعات البشرية وبادت ، وهم جميعاً غارقون في الجهل ، مخدّرو الفكر ، كأنهم ولدوا صُمّاً عُمياً .

فالمعرفة لم تبسط صفحتها الواسعة الغنية

بالذخائر امام عيونهم .

إن الفاقة المثبطة كبتت ثورتهم النبيلة ،

وجمّدت التيار الانيس في نفوسهم

ومما يبعث على التروّي ان نتصور اننا نحن ، او اولادنا ، او حفدتنا ، خليقون ان يصيبنا مثل هذا التخدير ، وان تكبّل عقولنا بالقيود الضيقة التي يفرضهـــا العمل اليومي الرتيب او الالم ، او الملذة وهي افظع . ففي وجه هذه المخاطر ينبغي ان نعلن ونؤكد حق المعرفة وحرية الحصول عليها واستعمالها .

الفصل الثاني

التبعة

لا يجوز لأية فئة بعينها من الناس ان تستأثر بحق المعرفة نيابة عن الشعب ، ولا لأيّ معهدٍ من معاهد العلم ان ينفرد بالحفاظ عليه . ففي اشد الايام بلاء في الحرب مع هتلر ، وجد الذين كانوا اشد الناس حرصاً على دوام المقاومة له ، وحفظ روح الاستقلال حياً بين الشعوب المغلوبة على امرها ، ان صيانة هذين المبدأين هي اشق ما تكون في الشعوب التي كان النظام الاجتماعي فيها ابسط ما يكون ، وان صيانتهما كانت ايسر ما تكون في الشعوب التي قامت فيها هيئات مختلفة منظمة ، للفكر والتعبير عنه – كالنقابات ، ومجالس القرى ، واندية التسلية ، والمعاهد الفنية ، واندية النساء ، والجمعيات الاجتماعية ، وورابطات الفنون الرفيعة ، والصحف ، ودور النشر المستقلة ، والمنظمات التي تضم رجال الطب او القانون وهكذا . وكذلك نجد ان اقوى ضمان لانتشار المعرفة

ودوام حيويتها في مجتمع حرّ ، هو اهتمام انواع مختلفة من هيئات منظمة فيه وحرصها عليها . فمن الخير ان تكون هناك انواع متنافسة من المدارس ، ومن الخير ان تشرف النقابات واندية العمال على تربية أعضائها . ولأنْ تكون هناك عشر صحف محلية مستقلة او نحو ذلك ، أفضل من ان تكون هناك مئة صحيفة هي نسخ طبق الاصل من نشرة واحدة يبعث بها من المدينة الكبيرة الى الفروع . ان جمعية واحدة من هواة علوم التاريخ الطبيعي تقوم في مقاطعة ما ، لاجدى من منهج يذاع ويعد محاضراته ويذيعها « ثقة مشهور » . ان حرية المعرفة ، كسائر الحريات ، تقوم على دعائم مختلفة ، ولن تكون سليمة البنيان ان قامت على دعامة واحدة وحسب ، فالتفكير هو الشغل الشاغل لكل انسان .

ومع ذلك فالمعرفة قوة ، والقوة تقتضي ان تلازمها التبعة. ان « حرية استعمال المعرفة » عبارة تنطوي على خطر ، او هي عبارة لا معنى لها ، الا اذا قصد بها – ككل حرية – نشاط خاضع للشعور بالتبعة . واظلم الصفحات في كتبنا التاريخية حافلة بسير رجـــال نالوا معرفة واسعة ثم استعملوها بغير وازع على الاطلاق . وعلى قدر ما تزداد سيطرة الانسان على الاساليب الصناعية والقوة الميكانيكية يزداد ظهور هذا النوع من الرجال ، إذ يندر بين فروع المعرفة ما لا يمكن استعماله لأذى الناس .

وقد مر بنا بحث القيود التي تفرض على استعمال المعرفة ، باتفاق غالب بين اهل الرأي . وفي الوسع تلخيصها في مبدإ واحـــد – وهو مبدأ يطوي الحقيقة التي نسلم بها جميعاً ، والمشكلة التي تحيّر بعضنا في الحين بعد الحين ، تحييراً شديداً . اما المبدأ فهو بكل بساطة : ينبغي الا تستعمل المعرفة لأذى الناس . واما المشكلة فهي تعريف الناس الذين يجب ان نسعى الى خدمتهم وحمايتهم .

وابسط حل لهذه المشكلة هو اجرأ الحلول واوسعها نطاقاً : ان كلمة « الناس » يجب ان تعني الانسانية جميعاً . وهذا لا يقتصر على الاحياء من اهل الكرة اليوم ، بل يشمل مآثر الرجال والنساء فيما مضى من الزمن ، فهم لا يزالون احياء بيننا في المعاهد العلمية الكريمة ، والمباني العظيمة ، والكتب الرائعة ، والمخترعات الباهرة . ولا ينكر احد ان خدمة الانسانية جميعاً تتأتى اكثر ما تتأتى للفرد ، في خدمة جماعته الخاصة ، فالامة او المهنة او العقيدة تستأثر غالباً بولاء المرء لانها تضيف الى سعادة الانسانية قيماً لا تعوّض . ولكن الواجب يقتضي من كل انسان ان يستوثق من أن حصوله على المعرفة واستعماله إياها لن يلحقا بالانسانية أذى ما . فالموظف الذي يمنع توزيع كتاب مختلف في أمره ، والمعلم « التقدمي » الذي يختصر دراسة العلوم في منهج مدرسة أو كلية أو يلغي دراسة الآداب القديمة ، هما رجلان يدمران

مآثر الماضي ، ويتلفان تراث المستقبل ، لا يختلف عملهما عن تشويه صفحة صورة مشهورة ، أو صب حمض آكل على تمثال كريم ، أو جعل وثائق حادث تاريخي طعمة للنار . ليس للحاضر وجود ، ولا يوجد سوى الماضي والمستقبل ، وعلينا تقع تبعة حيالهما كليهما .

وقد أنشئت الكليات والجامعات ، ووضعت النظم للحفاظ عليها ، لكي تساعد الجيل الجديد على فهم هذه التبعة . وهي لا تصيب النجاح دائماً لأن منشآت الإنسان هي بطبيعتها غير كاملة . ولكنها تحاول . وقد كانت هناك معاهد من هذا القبيل في عالم الاغريق والرومان وفي طليعتها الأكاديمية ، حيث علم أفلاطون ، والليسيوم الذي أسسه تلميذه أرسطوطاليس ، فلما انهارت الامبراطورية الرومانية الغربية وتدفق عليها الهمج ، لم يكد يسلم من هذه المعاهد معهد واحد . وما سلم منها سرعان ما أوصد أبوابه ملك متعصب . وقد ظلت المعرفة حية وهي لا تكاد ، في مدرسة طبية صغيرة هنا ، أو دير منعزل هناك ، أو بلاط ملك على شيء من المعرفة بالقراءة والكتابة . ولكن لم تكد تهل السنة الألف بعد الميلاد حتى بدأت الكليات والجامعات تظهر في طول أوروبا الغربية والوسطى وعرضها ، وكأنما كان ظهورها من تلقاء نفسه في المدن حيث كان الأغراب يلتفون حول معلمين ذوي شهرة ، أو يؤسسها راهب سخي أو أسقف حكيم .

جامعات باريس ، واكسفورد ، وسلامنكا ، وبولونيا ، وكراكاو ، وغلاسغو ، وبراغ ، قامت واحدة بعد واحدة ، وجعلت تتبادل المعرفة ، والنقاش ، وصارت خيرة علمائها ، ينافس بعضهم بعضاً ، وتنمو مواهبهم ، كأنما العقل زهرة تتفتح في دفء الربيع . ولم تكد تنقضي سنوات على استقرار المهاجرين الأوروبيين في أميركا الشمالية وأميركا الجنوبية حتى بدأوا يؤسسون الجامعات على مثال الجامعات التي عرفوها : جامعة القديس مرقص في بيرو ، وجامعة المكسيك التي طبعت في جوارها الكتب الأميركية الاولى ، وجامعة هارفرد ، التي اتخذت اسم قس درس على جون ملتون ، وأنشأ مكتبته الأولى بكتب جاء بها من جامعة كمبردج الى العالم الجديد . ففي هذه القرون الأخيرة حققت الجامعات في أوروبا واميركا ما عقده عليها مؤسسوها من رجاء نبيل ، وقد أسدت الى الانسانية خدمات شريفة . فهي تستحق كل إكرام ، والذين أسسوها وساعدوا على المحافظة عليها يستحقون كل إكرام أيضاً ، فهذه الجامعات هي من أمتن دعائم القوة في حضارتنا .

الفصل الثالث

تكريس

ان اعظم ما يُجزى به الطالب في هذه الجامعات هي ان يحس ويستمتع بهذا التراث وتقاليده الزاخرة الكريمة .

في جامعة اكسفورد ، يقوم بين الاشجار ، معمل للابحاث هادئ متواضع : هنا اتم فلوري وصحبه اتقان عقار البنسلين . وفي قلب مدينة برلين بناء مهدم كان من قبل قصراً ملكياً ثم صار جامعة عظيمة . وفي اروقة جناح من اجنحته ، لا يزال يتردد وقع اقدام المؤرخ العظيم مومسن وصدى صوته العالي . وهذه غرفة قديمة في مونبيليه مزنّرة جدرانها بألواح الخشب ويرقص في داخلها ضياء الشمس الذهبي : هنا حاضر رابليه في الطب الاغريقي القديم وعلم التشريح الحديث ، ولا يزال هو يطل على رواد الغرفة من صورة له معلقة على الجدار . وفي باريس ثكنة كالحة قبيحة ، تكثر فيها الحركة والضجيج ، ولكنها مدرسة النورمال العليا : وليس باستور

سوى واحد وحسب من العقول اللامعة التي عملت وعلمت فيها . وهذه بناية هادئة في يايل حيث استطاع عقل غبز الرصين المنطقي أن ينشىء قوانين علم الحركة الحرارية (ثرمو داينامكس) . وهذا السلم المتداعي في هارفرد ، كان يردد صوت كيتردج ، أقوى الذين وضعوا فلسفة الآداب . وهنا بين سطوح كولمبيا العالية لا تزال الأنوار مضيئة في ذلك المعمل حيث استكشف الباحثون أسراراً أدق من أن تدركها الحواس ، وحيث أكمل رابي تلك الحسابات الدقيقة التي أنالته جائزة نوبل للفيزياء .

وحسبك ان تطأ بقدميك ارض هذه الغرفة ، وان لم تعرف شيئاً ، سوى بسائط العمل الذي تم فيها ، حتى تنسى نفسك الصغيرة ، وتجل حماسة المفكرين والمعلمين وجهدهم وما بذلوهُ في بنيان عالمنا ، وحتى يستولي عليك شعور بأن النهر الكبير في عظمة جريانه هو اشبه ما يكون بالعقل في تقدمه الذي لا يكف ، العقل العجيب على ما فيه من نقص ، الفذ في كل فرد ، المتسامي فوق جميع الافراد ، العقل — تلك القوة الخفية التي اخرجتنا من همجيتنا الى الحضارة والحكمة ، وستسير بنا الى آفاق ابعد ، واذا بك تجعل نفسك مرة اخرى وقفاً على غرض الجامعة ، وهو كشف المعرفة وحيازتها ونشرها في سبيل خدمة الانسانية جميعاً .

فهرس

الجزء الثاني : حدود المعرفة

صفحة

الجزء الثالث : تكريس



أراد جلبرت هايت بهذا الكتاب "جبروت العقل"، أن يبحث تاريخ العقل البشرى ومدى ما وصل إليه وما يمكن أن يصل إليه. فهو يريد أن يعرف فى ضوء تاريخ الفكر مقدرة العقل البشرى وما ينتظر منه وهل يرتفع بنا أو ينخفض بمستوانا وهل يستطيع أن يقاوم القوى التى تعمل على دماره.

والأستاذ هايت واسع الاطلاع على آراء القدماء والمعاصرين وهو يستعرض هذه الآراء ليفهم معنى الحضارة الحديثة لعله يجد ما يروى غليله حين يسائل نفسه:

ما التربية الحديثة؟

ما الفكرة الجامعة؟

إلى أى حد يساعد العلم على فهم الاتجاهات البشرية؟

إلى أى حد بلغ العقل فى فهم فكرة الله؟

وهو يقلّب هذه الأفكار فى ضوء المعرفة عسى أن يجد إجابة وإن كانت إجابة جزئية على مسائل تنير لنا طريق الحضارة.

تصميم الغلاف: عصام عبد الرحمن